مصطفى محمود



مغامرة في الصحراء

دار المعارف

مغامرة فى الصّحراء

مصطفى محمود

مغامرة فى الصّحراء

الطبعة السابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الجنة درجة حرارتها ٤٨

من نافذة الطائرة كانت تبدو الرمال المترامية بلا حدود تلمع فى وهج الشمس كقميص من الذهب تعلو فيه التلال كنهود مكورة. خمرية فى رسم سيريالى خرافى من تلك الرسوم التى يرسمها سلفادور دالى.

وكنت غارقًا فى أحلامى أتتبع هذه اللوحة الأسطورية حينما تيقظت على يد رفيقى فى الرحلة الأخ على المصراتى «الكاتب الليبى المعروف».

وسمعته يقول بصوت قلق:

– هل أحضرت فى حقيبتك كل اللوازم.

قلت فى اطمئنان:

– إن بها كل ما أحتاج إليه من هدوم .

ورأيته ينفجر ضاحكاً

– هدوم ؟ ! ! . . هذه الحقيبة المنفوخة كلها هدوم . .

وراح يقهقه . .

– هل تعرف أن درجة الحرارة فى غدامس خمسون درجة فى الظل . . هل سمعت النشرة الجوية ؟

قلت وقد بدأت أتصبب عرقًا :

– يا لطيف .

وتذكرت درجة حرارة الأربعين فى القاهرة وأنا أسير مغمى على وقلت وأنا ارتجف :

– على أى حال لا بد أنى سأجد دشًا فى الأوتيل .

– هناك أدشاش بعدد ما تريد ولكن المياه ملحة وتشقق الجلد .

– أعوذ بالله وهل سنشرب من هذه المياه الملحة .

– يمكنك أن تشرب مياهًا غازية ولو أنها مصنوعة من نفس المياه الملحة . . على أى حال هى مياه ملحة مفيدة للصحة فيها حديد ونحاس وزئبق .

– وزيبق كمان . . هذا يعنى أننا سوف نموت بالتسمم .

– سوف تتعود .

– الظاهر أننا سوف نتعود على أشياء كثيرة .

– ولكنك طبعاً أحضرت معك المصل .

– أى مصل ؟

وهنا قفز صديقى من كرسيه فى انزعاج .

– المصل المضاد للعقرب والثعبان . . هل نسيته ؟

والواقع أنى كنت قد نسيت تماماً .

وقلت وأنا أحاول أن أطمئن نفسى :

– وهل هناك عقارب وثعابين ؟ .

– وعناكب وحيات . . نحن نازلون فى قلب الصحراء الأفريقية .

– ولكننا سوف نسكن فى أوتيل وننام فى غرفة يمكن أن نقفل بابها وشباكها علينا .

– ستنام فى غرفة صحيح ولكنك لن تستطيع أن تقفل بابها من الحر إلا إذا كنت تريد أن تموت مسلوقاً .

وراح يضرب كفاً بكف .

– كيف تنسى احتياطاً طبياً كهذا . . وأنا معتمد عليك باعتبارك طبيباً .

وارتفع أزيز الطائرة ذات المحرك الواحد وراحت ترتفع وتنخفض فى المطبات الساخنة كأنها ريشة فى مهب الرياح وغرق المصرانى فى سكوت قلق .

قلت وأنا أحاول أن ألتمس كلمة مطمئنة :

–ولكن هناك مستشفى على أى حال أو مركز إسعاف فى حالة ما إذا . .

– هناك مركز إسعاف ولكن الحقن الموجودة . . تنفذ بسرعة لأن حوادث العقارب كثيرة جداً . . وتمر أيام قبل أن تصل شحنة جديدة من طرابلس بالطائرة . . وأنت تعلم أن لدغة العقرب تقتل فى ظرف ساعات .

– أعوذ بالله .

قال فى نبرة استسلام :

– نهايته . . الأعمار كتاب . . والحذر لا ينجى من قدر . . وإذا كان مكتوباً لنا الموت فى غدامس سنموت فى غدامس حتى ولو كان مركز الإسعاف كله فى جيبنا .

وشعرت بأطراف تتثلج لهذه النبرة الجنائزية . . لم يبق إلا أن نحضر معنا الأكفان . . ونقرأ الشهادتين . . ويكتب كل منا وصيته .

وراحت الطائرة تهتز مرة أخرى وتسقط كأنها تهوى إلى قاع بئر ثم ترتفع وتنتزع أحشائى فى كل مرة . . ومال الأخ المصراتى على النافذه مشيرا بإصبعه :

– أترى هذه النقطة الخضراء . . هذه غدامس . . لؤلوة

الصحراء كما يسمونها . . فى هذه النقطة تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة .

وأخذت الطائرة تدور مستعدة للهبوط .

وظهرت شواشى النخيل خضراء تلمع فى الشمس الغاربة .

وسكت المحرك الواحد وبدأت الطائرة تهبط حتى استوت على الأرض فى نعومة . .

وهبطنا لتستقبلنا على الباب لفحة ساخنة .

وكان الترموتر فى المطار يشير إلى درجة ٤٥ . . ولكن الحرارة كانت محتملة بسبب الجفاف الشديد .

وكان كل شىء جافًا نظيفًا ساخنًا . . الأرض والجدران والمقاعد والأبواب . . ولكن الهواء كان صافيًا نقيًا معقمًا كأنه خارج من أتوكلاف وكان يدخل الصدر فيغسله .

وشعرت بالانتعاش بالرغم من شدة الحر .

ولكن كنت مازلت أفكر فى العقارب .

وحينما التقينا بمتصرف المنطقة الشيخ ونيس الدهمانى . . « المتصرف فى مقام المحافظ عندنا » كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب . . وكنت أفكر فى الطريقة التى أسأله بها .

وأمسك بيدى يشد عليها فى حرارة .

– كيف الحال . . إنشا الله تكون مرتاح . . كيف الحال عندكو

فى مصر .

ونظرت إلى الرجل المديد القامة . . كان وجهه الصريح وملامحه الحادة القوية والسمرة النبيلة التى تكسو وجهه تحكى قصة كفاح طويلة مع الصحراء ومراس متصل مع المشقات .

وكانت عيناه تتدفقان طيبة وبساطة .

وقلت له إن الأحوال بخير فى مصر ودعوته لزيارتنا ولقضاء الشتاء على ضفاف النيل .

ولكنى كنت مازلت مشغولاً بحكاية العقارب . .

ورأيتنى أسأله فجأة عن العقارب .

وضحك الرجل ضحكة مجلجلة .

– العجارب . . العجارب ما بتعمل شىء . . الأولاد هنا بيجمعوا العجارب فى طاسة ويلعبوا بها .. بينبشوا عليها فى الصحرا . . فيه حد يخاف م العجارب . . إنت خايف يا دكتور .

وقلت له وأنا أكذب بشدة .

– لا . . لا . . أبدًا . .

وعدت أسأل على استحياء بعد لحظة صمت .

– لكن يعنى . . فيه أظن مركز إسعاف فى البلد . . وفيه مصل عقرب .

– ما فى حد بياخذ المصل . . وحاناخذ المصل ليه . .

العجارب ما بتعمل شيء .

واعتبرت المسألة منتهية .. وأن العقارب ما بتعمل شيء .

وقلت للأخ على متحدياً :

– شايف يا على – العجارب ما بتعمل شيء .

وضحك على ساخراً .

– طيب ما بتعمل شيء . . ما بتعمل شيء . . مبروك عليك عجارب غدامس .

وتطرق الحديث بعد ذلك إلى عديد من الموضوعات ثم خطر لى أن أسأل المتصرف فى ناحية من نواحى اختصاصه فسألته عن إحصائية بالحوادث فى غدامس فى السنوات الأخيرة .

قال الرجل فى استفهام :

– إحصائية بالحوادث . . كيف ؟

– يعنى عدد الجرائم مثلاً . . عدد الجنايات .

– جرائم . . كيف ؟

– جرائم السرقة . . وجرائم القتل . .

وابتسم الرجل فى طيبة .

– إحنا ما عندنا جرائم .

وفتح دفتراً كبيراً راح يقلب صفحاته أمامى . . صفحات عديدة بيضاء . . استفسارات من الوزارة . . وردود عليها .

مشروع مساكن شعبية . . مذكرة بإنشاء ناد للشباب . . محضر صلح بين عائلتين . . مذكرة من الأهالى بطلب بناء خزان ماء للمسجد . . ولكن لا جريمة واحدة . . لا جريمة سرقة . . ولا جريمة قتل . . الأمن مستتب بطول السنوات العشر الماضية .

– وأبديت دهشتى وقلت إن هذا شىء غير معقول . ثم عدت أقول إن البوليس لابد أنه كفء جداً .

وقال المتصرف :

– هذا بفضل السيد البدرى .

قلت له إن السيد البدرى هذا رجل عظيم الشأن جداً وأبديت رغبتى فى زيارته وفى الطريق إلى السيد البدرى كنت أقول لنفسى طول الوقت . . أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل . . إنه ولا شك أعظم مأمور بوليس فى الدنيا وفجأة توقف المتصرف وأشار بأصبعه إلى نافذة .

– هذا هو السيد البدرى .

– ولكن هذا ضريح .

– نعم إنه ضريح السيد البدرى .

وراح يقرأ الفاتحة .

وراح الكل يقرءون الفاتحة .

وقال المتصرف :

- إنه صحابي دخل غدامس مع جنود عقبة بن نافع في عام ٤٢ هجرية وحارب الكفار وكافح حتى نشر الإسلام في آخر زقاق من أزقة الواحة ثم استشهد منذ أكثر من ألف عام.

- ولكني لا أفهم كيف يحافظ رجل ميت على الأمن.

- إن الأهالي يؤمنون به إيمانًا راسخًا ويعتقدون أنه يستطيع أن يكشف أي سر.

- إزاي.

- حينما تحدث سرقة يجتمع المشايخ في الضريح ويقرءون سورة يس أربعين مرة فيظهر السارق على الباب وهو يتوسل.. استروني من الفضيحة يرحمكم الله.. ويرد ما سرق كاملاً.. وتنتهي القصة دون تدخل البوليس..

- غير معقول.. وهل حدث هذا فعلاً.

- حدث كثيرًا.

وهنا تقدم عسكري بالجمرك ليروي آخر قصة حدثت منذ ستة أشهر حينما سقطت محفظة أحد السياح وبها أربعمائة جنيه والتقطها أحد الأهالي وأخفاها.. وروى كيف اجتمع المشايخ في الضريح وقضوا الليل في قراءة يس.. وحينما بلغوا العدد ٣٢ ظهر السارق على الباب وهو يتوسل.. استروني.. لا تفضحوني يرحمكم الله

والتى لهم بالمحفظة وجميع أوراقها كاملة . . وطلب الصفح والمغفرة والأمان .

وكنت أجد صعوبة فى تصديق هذا الكلام .

ولكن ها هى دفاتر البوليس خالية منذ سنوات لم تسجل بها جريمة واحدة .

هناك شيء واحد أكيد على أى حال . . أن غدامس لم تبلغ عن جريمة سرقة ولا قتل منذ عشر سنوات . . وأن الأمن والسلام ينشر ألويته على هذه الربوع . . وهو لغز فى ذاته يحتاج إلى تفسير .

وسواء كان التفسير هو الإيمان وما يفعله الإيمان المطلق بسارق يعلم أن هناك قوة سوف تكشف سرّه فيتقدم طالباً المغفرة خوفاً ورعباً من المصير .

وسواء كان التفسير هو كرامة السيد البدرى أم غيرها . فإن السيد البدرى فى الحالين شخصية خطيرة وجديرة بكل احترام .

وبسطت كفى وقرأت الفاتحة للرجل الذى استطاع أن يحقق وهو ميت ما عجز عن تحقيقه جميع الأحياء .

وكنا قد وصلنا إلى « عين الفرس » وهى العين التى تستقى منها كل الواحة : زرعها وأرضها ونخيلها وحيوانها وناسها .

وهى عين قديمة تاريخ تفجرها غير معروف ويقال إنه أربعة آلاف سنة ، وإن الواحة بدأت بالعين . . والحياة بدأت من اللحظة

التى تفجرت فيها . . والتاريخ بدأ من عندها .

وفى حكاية أخرى أنها تفجرت تحت أقدام فرسة عقبة بن نافع . . كانت الفرسة تنبش بحافرها وهى عطشى فتفجر الماء تحت أقدامها ومن هنا سميت « عين الفرس » وهى حكاية مشكوك فيها لأن العين بدأت فى الغالب مع مولد الواحة ذاتها ولم تجىء متأخرة مع دخول الإسلام .

وهناك حكاية ثالثة تروى أن قافلة من البدو الرحل تذكروا بعد أن أوغلوا فى الصحراء أنهم نسوا قصعة طعامهم فى المكان الذى تغدوا فيه أمس وعادوا أدراجهم يبحثون عنها فى المكان الذى أكلوا فيه . وبينما هم يبحثون تفجرت العين فسموها عين غدامس أى حيث الغداء بالأمس . . غدامس . . فأصبحت غدامس وهى فبركة طريفة لاختلاق أصل عربى لاسم غير عربى .

لكن الحقيقة غير معروفة .

متى . . وكيف . . وفى أى عصر . . انفجر هذا الينبوع فأحال الصحراء إلى جنة . . لا أحد يعلم .

لكن كالعادة الخير أتى ومعه الشر .

فما لبثت الواحة الخصبة أن أصبحت مطمعاً للأقوياء وتعاقب عليها الغزاة . .

الرومان والوندال والبيزنطيون . . ومازالت بها إلى الآن آثار

رومانية . . وطرز العمارة البيزنطية واضحة فى طابع مبانيها .

ولقد ظلت غدامس مسيحية بسبب الوندال والبيزنطيين إلى سنة ٦٦٦ ميلادية الموافقة ٤٢ هجرية حينما دخلها العرب بقيادة عقبة ابن نافع ليحولوها إلى الإسلام . . وبعد العرب جاء الأتراك فى القرن السادس عشر ثم إيطاليا فى سنة ١٩٢٤ . . وانتهت قصة استعمار الواحة فى يناير ١٩٤٣ حينما أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وثكناتها فى الواحة فى الحرب العالمية الثانية ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامى .

ولكن أغلب الظن أنه كان هناك تاريخ ما قبل التاريخ فى الواحة . . فهناك آثار عصر حجرى وسكاكين وخناجر من الصوان . . وقد عثر على تمثال عجل ذى رأس بشرى بالقرب من بئر عوان بجنوب غدامس ذى ملامح من النحت البدائى الذى كان موجوداً فى مصر قبل التاريخ .

إنها قصة قد تطول إذن إلى عشرة آلاف سنة وربما أكثر لا أحد يدرى .

وكل هذا التناطح دار حول بئر انفجرت وسط الصحراء .

وكان هناك نظام قديم للسقاية من البئر يدل على مدى قيمة الماء فى ذلك الوقت فقد شق الأهالى عدة أنهار تجرى فيها مياه العين وعلى كل نهر بوابة يمكن أن تفتح وتقفل واستعملوا ما يشبه الساعة

المائية . . سطل مثقوب تسيل منه المياه ببطء حتى يفرغ على مدى ساعة زمن . . وعند بدء الساعة يفتح أحد الأنهار لتستقى منه إحدى القبائل وفى نهاية الساعة تقفل البواية فتنتهى السقاية . . ويجىء الدور على القبيلة الثانية التى تستقى من النهر الثانى وهكذا يمر الدور على جميع القبائل . . أول نظام لعداد مائى فى العالم .

ومازالت هناك ثلاثة أنهار جارية تخرج من البحيرة الكبيرة التى تصب فيها العين . . ومازالت تحمل الأسماء البربرية القديمة . . تاسكو . . وتارت . . وتنجسين .

وقد بنى الأهالى مدينتهم فوق هذه الأنهار فأصبحت أول مدينة تجرى من تحتها الأنهار .. إنها الجنة .

أهلها لا يعرفون السرقة ولا القتل . .

والبوليس يجلس فيها بلا وظيفة أمام دفاتر خالية . .

وتحكمها روح سيدى البدرى .

وتجرى من تحتها الأنهار . .

ولكنها جنة عجيبة درجة حرارتها ٤٨ .

الظلام حالك فى عز النهار

كان خادم فندق غدامس يدور فى غرفتى فى سعادة ويشير بإصبعه مبتسماً إلى السرير الذى أنام عليه .

– هذا السرير نام عليه المارشال بالبو منذ أكثر من ثلاثين سنة . . ومنذ سنوات قليلة كانت تحتل هذه الغرفة صوفيا لورين ونامت على نفس السرير أربعين ليلة وكانت تصور هنا فيلم « الخيمة السوداء » وفى هذا البانيو كانت تستحم كل مساء .

إنها غرفة محظوظة . . فى أيام الاستعمار الإيطالى كان المارشال بالبو يجلب العشيقات الفاتنات من روما بالطائرة وكان يملأ هذه الغرفة بالضحكات . . وكانت قرعات الكئوس ترن فى سكون الواحة . . هذا السرير له ذكريات .

ورحت أتمرغ فى سرير المارشال بالبو وصوفيا لورين .

انتهت الضحكات .

احترقت طائرة المارشال بالبو وهو الآن رماد تذروه الرياح من سنين .

ماتت القبلات .

والعشيقات الفاتنات أصبحن الآن عجائز بلا أسنان .

وها هو السرير الشهير فى فندق غدامس يشهد ليلة جديدة مختلفة .

فعندما يأتى الظلام سوف آوى إلى السرير وأنا احتضن كتابا .

إنه عشق من نوع جديد .

ولعله العشق الوحيد الذى تدوم فيه القبلات ويستمر العناق وشعرت بأننى يجب أن أعتذر للبانيو فلن يكون له دور كبير فى غراميات الليلة .

وكان البانيو فاخرًا مبطنًا بالقيشانى الأسود والدش ينزل فيه ساخنًا ملتهبًا بلا سخان . وكل حنفية هنا تنزل منها المياه ساخنة . فرمال الواحة الملتهبة تعمل كموقد طبيعى طول الليل والنهار فترفع حرارة جميع الأشياء .

ورحت أنقب تحت السرير ووراء الأبواب وفى الأركان عن العقارب والثعابين والسحالى والعناكب والأفاعى .

وسمعت قرعًا على النافذة وأطل رأس الأخ المصراتى .

– أنت مستعد .

– ليه .

– حانطلع جبل قصر الغول .

وأعجبنى الاسم .

كانت له رنة فى الأذن توقظ الرغبة فى المغامرة .

وقلت له إنى آت فورًا .

جبل قصر الغول .

وفى دقائق كنا نركب عربة لاندروفر تترنح بنا خارجة من الواحة إلى عرض الصحراء .

وكان هذا أول لقاء لى مع الصحراء ذلك البساط من الرمل بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر وبلا قطرة ماء . . وذلك الهواء الجاف الساخن كأنه منديل كبير من الشاش يمسح العرق ويجفف اللعاب . . وتلك الأرض الهشة التى انفرطت إلى ركام من الدقيق الأصفر وتلال وآكام وجبال وأودية تصفر فيها الرياح فتصبح السماء بلون الأرض ولا ترى يديك على بعد متر من عينيك وكأنك غرقت فى مستحلب أصفر وتحولت إلى ذرة تراب فى عالم من التراب يدخل من فمك وأنفك وأذنيك وعينيك وجلدك ويلذعك بملايين النبال الساخنة .

وكانت اللاندروفر تتلوى صاعدة هابطة ساقطة .

وأمعائى تتخضخض . . ورأسى يخبط فى السقف . . وبعضى يخبط فى بعض . . والسائق ماهر جداً . . ومتخصص فى الطريق ومعه دليل . . ونحن جميعاً نشكر الله . . فلولا ذلك لتاهت السيارة لأى خطأ طفيف فى الاتجاه ودخلت فى واحدة من تلك المتاهات التى يسمونها الرمال الناعمة حيث تغوص كما يغوص الحجر فى الماء .

ومرت ساعات دون أن نقطع مسافة تذكر .

وظهرت الحدود الجزائرية على البعد .

ودرنا حول الحدود ثم بدأت السيارة تسرع على سهل منبسط لتلقى بنا فى النهاية عند أقدام جبل صغير أشهب ملىء بالنتوءات الصخرية . . قال السائق وهو يتوقف أمامه .

– هذا هو جبل قصر الغول . . هنا حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار .

ونزلنا نتسابق جرياً إلى القمة وأشهد أن الأخ على المصراتى كان أسرعنا وصولاً وكان أول من صاح وهو يطل علينا من فوق :

– لقد وجدت البئر .

أما أنا فقد توقفت عند منتصف الجبل أمام كهف مظلم . .

وجلست على صخرة كبيرة ألتقط أنفاسى وقال لى الضابط المرافق إن هذا الكهف نقبه جنود عقبة بن نافع فى الجبل . . وظلوا

ينقبون فى الجبل حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر ورابطوا هناك يقطعون كل حبل يدلى به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشا فلم يجدوا بداً من النزول والالتحام مع جيش عقبة وانتهت المذبحة بانتصار العرب . . وأنت تستطيع أن ترى من هنا قبور الشهداء من الصحابة . . وأشار على عدد من القبور منصوبة بطريقة إسلامية بسيطة .

وحينما بدأنا نسير نحو القبور . . كنت أفكر فى الطريق الطويل الذى قطعه هؤلاء المحاربين من مكة إلى قلب الصحراء الليبية يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة من التمر .

أى قوة رهيبة . .

وأى طاقة أطلقتها كلمات القرآن فى هؤلاء البدو الجاهليين فجعلت منهم فدائيين ورسل فكر وعلم وحضارة يسعون لمصارعة الموت وهم يبتسمون .

وحينما بدأت أقرأ الفاتحة لاحظت أنى فقدت صوتى من العطش وأن حلقى قد جف تماماً وتحول إلى أنبوبة من الحطب لا تخرج سوى الفحيح .

إن ترف المدنية واللاندروفر وخبراء الطريق لم تستطيع أن تعطينى قوة .

إن الكهرباء والذرة والقطار والتليفزيون والفريجيدير والحياة المنعمة سوف تزيدنا رخاوة .

إننا نخسر ولا نكسب .

إن إنسان العصر ينحرف تدريجيًا ويخسر ذلك الشيء الذى كان عند هؤلاء المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة وهبوا كالأعاصير وغيروا وجه الدنيا .

نور القلب قبل نور الكهرباء هو ما يجب أن نبحث عنه .

نبع روح أولاً . . ثم نبع بترول .

لقد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض لا تملك سوى البعير والخيام واقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيرته كلمة حق .

واليوم عندنا الحديد والصلب والكهرباء والبخار والذرة ونغوص كل يوم فى الحقد والكراهية إلى الركبتين ونزداد رخاوة وضعفاً .

العلم المادى أضاء لنا البيت ولكنه لم يضىء لنا قلوبنا .

العلم قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية لأنه كان علماً خلا من الدين .

وركعت ألثم الرمال حيث تنام قلوب امتلأت عزماً ومحبة وشجاعة .

وحينما كنا نعود إلى غدامس كانت أكثر من عشرين مئذنة تؤذن باسم الله .

* * *

وواحة غدامس تقع فى قلب الصحراء الليبية على خط عرض ٣٠ شمالاً وارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب حدود تونس والجزائر . وتعدادها السكانى وصل فى عام ١٨٤٥ إلى ثلاثة آلاف بينهم خمسمائة عبد . . . وفى سنة ١٩٤٠ وصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة معظمهم من البربر والطوارق . . وهو تعداد كبير نسبياً فنى بلد آخر قريب مثل « فلفلت » يبلغ عدد السكان أربعين نفراً منهم سبعة رجال فقط والباقى نساء وأطفال .. وهذا كل شعب فلفلت . .

والواحة محاطة بسور منخفض يبلغ محيطه ٣ أميال . . فيه عدة أبواب كان يقف عليها الحرس شاكى السلاح .

واشتهرت غدامس بطول التاريخ بأنها أكبر محطة قوافل . . وكان يمر منها فى العام أكثر من ثلاثين ألفاً من الإبل .

ومن أهم خطوط القوافل التى تخرج من غدامس ذلك الخط الذى يبدأ من غدامس ثم يتجه إلى غات ثم تمبو كتو .

وتجارة العاج وريش النعام وتراب الذهب والشاى والعطور

التونسية والثياب المطرزة ومناديل الحرير كانت تخرج وتدخل ليبيا عبر غدامس .

وقد عرف الكثير من التجار السبيل إلى الثراء عن طريق تلك القوافل .

كتب أحدهم يقول « قطعت ذلك الطريق سبع مرات كنت فى أولها خادماً وفى آخر مرة كان عندى سبعة من الخدم » .

وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لعالم قديم لا يعرف الطائرة ولا القطار ولا السيارة ولم تكن له شرايين يعيش بها سوى قوافل الصحارى .

ولكن مثل تلك الرحلات لم تكن نزهة سهلة فقد كان الموت والهلاك يترصد المسافر فى كل خطوة من الوحوش وقطاع الطرق وهلاك الإبل والموت عطشاً وضلال الطريق وطول السفر الذى كان يمتد إلى شهور فى الحر اللافح وسوافى الرياح . . ولهذا كان طبيعياً أن يرتفع ثمن البضاعة إلى عشرة أضعافها وأن يصبح الربح سخياً مجزياً . . مثلا كانت العباءة الحريرية يبلغ ثمنها عشرة خراف وكان رأس الإبل الواحد يباع بمائة وعشرين خروفاً .

وما زال تجار غدامس إلى الآن يحتفظون بألقاب عائلاتهم القديمة . . أولاد شهاب وأولاد بكر . . وأولاد التنى .

والجد الأكبر لعائلة التنى الذى بلغ من الثراء وتكدس الذهب

إلى درجة الخرافة كان يقال إن الجن هو الذى يجلب له الذهب وأنه بدأ رأسماله بكنز من العملات الذهبية دله عليه الجن .

والأرض خصبة فى غدامس تنبت كل شىء حتّى القطن والزيتون والرمان والشمام والبطيخ والطماطم والخضر ولكنها مهملة لا ينبت فيها سوى النخيل .

وأعجب ما فى غدامس مبانيها . . البيوت المتلاصقة ذوات النتوءات المثلثة (لطرد الشياطين والأرواح الشريرة) والأبواب المنقوشة والمزينة بالطلاسم والتعاويذ وخاتم سليمان المطبوع على رقاع من الجلد ومعلق فى المداخل .

وجميع البيوت لصق بعضها ولها سطح واحد والنساء يعشن على الأسطح ولا يبرحنها . . مجتمع النساء . . وسوق النساء . . وحياة النساء . . كلها على الأسطح ولا يرى على الأرض فى الشوارع إلا الرجال .

والشوارع جميعها مسقوفة وضيقة ومظلمة حالكة الظلام فى عز النهار مثل ممرات منجم تفوح منها روائح العرق والتّراب ولا تستطيع أن تمشى فيها بدون بطارية . .

وفى المدينة سوق للنخاسة كان يباع فيها الرقيق فى الأيام الخالية .

وفيها أكثر من عشرين مسجداً . . وفى كل مسجد مقصورة

خاصة بالنساء . .

وجميع (الغدامسية) مسلمون متمسكون بديانتهم وعندما ينادى المؤذن للصلاة تخلو جميع الشوارع وتخلو جميع المتاجر من الناس . . الكل يذهب إلى المسجد .

وهم يعالجون المجنون بتلاوة القرآن على رأسه .

ولا أحد يسرق ولا أحد يقتل . . والغدامسى إنسان وديع جداً ومسالم جداً .

ومن تقاليد الزواج عندهم أن يبقى العريس والعروس فى « الحجبة » وهى دروة أو خيمة صغيرة – متر فى متر – داخل البيت لا يبرحانها لمدة سبعة أيام .

والأكلة (الغدامسية) الشعبية هى الملوخية والبازين .

والملوخية تُطهى بطريقة خاصة فهى تجفف ثم تطحن حتى تصبح دقيقاً غاية فى النعومة ثم تمزج بالزيت وتضاف إلى الماء وتغلى مدة طويلة ثم يضاف إليها اللحم والبهارات وقليل من السمن . . وطبق الملوخية يقدم عادة مغطى بالزيت .

أما البازين (وهو أيضاً أكلة طرابلسية شائعة) أشبه بالعصيدة المصنوعة من دقيق الشعير والماء المغلى وبعد النضج يضاف إليها الملح ثم تكور على شكل كرة وتجوف ويوضع فى قلبها الخضار واللحم .

وفى غدامس قلعة بنيت فى عهد الاحتلال الإيطالى وقلعة

أخرى قديمة بنيت فى عهد الاحتلال التركى .

ومازال (الغدامسة) يذكرون اليوم المشئوم الذى جاءت فيه كوكبة من جنود يوسف القرماللى (الحاكم التركى) إلى الواحة وأخذت بالغصب والتهديد أكثر من ألف وزنة من الذهب ، وكانت تجمع النساء والأطفال رهائن وتجلد كل من يرفض الدفع .

وهم يذكرون أيضًا أيام الاستعمار الإيطالى الأسود سنة ١٩٤٠ حينما كان الإيطاليون يجمعون الشبان ويجندونهم بالسخرة لحرب الفرنسيين فى الجزائر . . وكانوا يعتقلون كل من يرفض ويودعونه السجن . . ويفرضون الضرائب على كل تاجر وعلى كل رأس من الإبل .

وهم يذكرون ذلك اليوم من شهر يناير ١٩٤٣ حينما هاجمت قاذفات القنابل الفرنسية غدامس لضرب الثكنات الإيطالية فيها وأشعلت الحرائق وقتلت المئات من (الغدامسيين) تحت الردم .

ولكنهم يواجهون هذه الكوارث بروح قدرية تؤمن بأن الموت كتاب وتسلم كل شىء لله .

والقبائل التى تسكن غدامس بعضها بربر وبعضها طوارق وبعضها عرب .

والطوارق يسكنون خارج غدامس فى قرية « الظاهرة » .

أما البربر فيسكنون المدينة وهم مزيج من عرق بربرى وآخر

عربي وينحدرون من قبيلتين قبيلة وليد . . وقبيلة زيد .

ومن قبيلة وليد خرجت ثلاثة قبائل ضرار . . وناسكو . . ومازيغ .

ومن زيد خرجت أربع قبائل : جرسان وفرفرة . . وتنجسين . . وولاد باليل .

والقبائل السبع أُطلِقت أسماؤها على شوارع المدينة . . شارع ضرار . . وشارع تاسكو . . وشارع مازيغ . . وشارع جرسان . . وشارع فرفرة . . وشارع تنجسين . . وشارع باليل .

وشارع باليل هو آخر شارع دار فيه القتال بين المسلمين وسكان الواحة وهو القتال الذى استشهد فيه السيد البدرى .

والمدينة ذات البيوت المتلاصقة والسطح الواحد والشوارع المسقوفة لها أيضا عدة أبواب . . على كل باب تقرأ عبارة عربية منحوتة وتقرأ تاريخ بناء ذلك الباب . . وكل باب له اسم .

على باب « أم سبيلن » تقرأ :

يا من دخل وخرج بعد الضيق تجد الفرج .

وتدخل من باب « أم سبيلن » إلى شارع مظلم يتفرع بك إلى تلك القنوات الغريبة كأنها ممرات وتتفتح بك الطرقات هنا وهناك على ميدان أو ساحة يجتمع فيها أهل البلد فى الحفلات والمهرجانات أو ملعب يلعب فيه الأطفال .

وحفلات الأعراس عندهم يعزف فيها زمار وعدد من النساء يضربن الطبل وهن محجبات تماماً ويرقص الرجال ولا ترقص النساء البربريات .

واللغة (الغدامسية) هى مزيج من اللغة العربية واللغة البربرية والعامية الليبية واللغة الطارجية (لغة الطوارق) .

وتعدد الزوجات موجود بين (الغدامسة) ولكنه قليل .

وشرط البكارة فى الزواج ضرورى .

وفى أحد شوارع البلدة المسقوفة تجد عدداً من الحمامات مبنية فوق أحد أنهار عين الفرس (وجميع الأنهار التى تخرج من عين الفرس تجرى تحت مبانى البلدة . . فالبلدة مقامة فوق الأنهار) وفى كل حمام شماعة تضع عليها ثيابك قبل أن تنزل إلى البانيو والبانيو هو النهر نفسه الذى تجرى فيه مياه العين دافئة صيفاً وشتاءً .

ومازالت الأصنام التى كان يعبدها أهل غدامس قائمة خارج البلدة قرب قرية الضاهرة .

الرجل ملثم والمرأة سافرة

لا شيء يثير فى غدامس مثل هؤلاء الفرسان العرب الملثمين يركبون المهارى (نوع من الإبل السريعة) ويسيرون فى قوافل مهيبة لا يظهر من الواحد إلا عيناه تبرقان فى ضوء الشمس ، أما الوجه والرأس فيخفيهما لثام أبيض وأحياناً ملون والجسم يلتف فى عباءة فضفاضة بيضاء أو ملونة . . وإذا صادفت أحدهما يمشى فى الصحراء خيل إليك أنه أمير أو ملك يمشى فى قصره فهو دائماً يمشى رافع الرأس فى اعتداد وخطو ثابت واثق كأنه قيصر يتفقد مملكته وهو دائماً أنيق رشيق معطر .

هؤلاء الفرسان هم الطوارق .

والطوارق هم قبائل متعددة تملأ الصحارى الشاسعة فى الجزائر

وليبيا والسودان والنيجر .

وطوارق غدامس أكثر تحضرًا وتمدنًا من إخوانهم الذين يعيشون على البداوة والارتحال والتنقل وراء المراعى فى صحارى الجزائر والسودان .

وهم يتبعون قبيلة كبرى اسمها فوغاس والاسم مشتق من فغسى باللغة الطارجية وهو اسم حيوان مفترس . . وهذا يدل على العقيدة الطوطمية « تقديس الحيوانات واعتبارها أجدادًا انحدر منها الجنس » .

وقد انحدر من فوغاس ثلاث قبائل – كل تهى هاوت . . وكل أوراغن . . وكل تسيللى . . وكلمة « كل » معناها ابن – أى ابن تهى هاوت وابن أوراغن . . وابن تسيللى . . وهى القبائل الثلاث التى تؤلف الطوارق السمّائة الذين يستقرون فى قرية الضاهرة خارج غدامس .

والطوارق (الغدامسة) مسلمون مالكية متمسكون بدينهم .

وقد غير الإسلام طباعهم وعاداتهم .

ودخل الترانزيستور ودخلت البطارية والدراجة لتغيرهم أكثر .

وقواعد الزواج يحكمها التشريع الإسلامى فلا زواج بين أبناء وبنات البطن الواحدة ولا بين الأب وابنته ولا بين الأم وابنها ولا بين الأخوات فى الرضاع وبالمثل تكون المسافحة بين أمثال هؤلاء

من المحرمات أيضا .

وفى كل قبيلة فقيه يعلمها القرآن ويخرج معها فى ارتحالها .

وامرأة عجوز سنها ٨٢ سنة اسمها « مبروكة أيدا ماهولز » سمعناها تقرأ القرآن فى مصحف مخطوط . . وهى تحفظ جميع السور عن ظهر قلب .

وفى الوليمة الكبيرة التى أقامها لنا الطوارق جلسنا على سجاجيد وحشايا وثيرة وقدم إلى كل منا فوطة نظيفة مبخرة بالمسك والعنبر وبدأت الضيافة باللبن والتمر وهم يشربون لبنًا « محمَّضا » ثم الخروف المشوى بالكسكسى ثم الشاى العربى .

وقبل العشاء قدم شباب القبيلة عرضًا لألعاب الفروسية على ظهور المهارى ورقصت المهارى على الطبول .

وبعد العشاء بدأ السمر الذى طال إلى نصف الليل .

واللغة التى يتكلم بها الطوارق « التارجية » من أصل بربرى ويقال إنها مشتقة من اللغات السامية القديمة وفى رأى ثالث أنها إنتاج محلى وأن لها أصالتها الخاصة فهى وسائل التعبير الأولية التى ابتكرتها الأجناس البدائية التى سكنت الشمال الأفريقى من ألوف السنين .

واللغة التارجية ليس فيها حرف د وحرف ض وإنما حرف واحد يدل على الاثنين ، وأيضًا لا يوجد فيها حرف س وحرف

ص ولا حرف ق وحرف ك وإنما حرف واحد أقرب إلى حرف الصاد والكاف .

ولغة الكتابة واسمها « تيفيناغ » مؤلفة من ٢٤ حرفًا ، وهى أشبه بالعلامات الهندسية « دوائر ومربعات ونقط وشرط ومثلثات » وهى تنقش على الحجارة والجلود والخشب وتستعمل فى مناسبات قليلة لتسجيل الملكية أو عقود الزواج وتكتب من اليمين إلى اليسار أو من فوق إلى تحت ، ويتخاطب العشاق بإشارات من أصابعهم دون نطق كطريقة سرية للتفاهم على المواعيد .

وأصل هذه اللغة غير معروف ويقال إنها مثل لغة الكلام من أصل سامى .

واللغة العربية معروفة قراءة وكتابة بالنسبة للطوارق (الغدامسة) .

وللطوارق أشعار وأغان ومنشورات باللغة التارجية تتحدث عن الحرب والحب والصحراء والجبال وسكون الليل وجلسة العشاق متشابكى الأيدى حول النار الراقصة وذلك الإحساس الذى يستولى على الحبيبين فيشعران بالجمال الطاغى للحياة والقمر والنجوم ورقصة العصفور « مولا مولا » أمام الخيمة ونشوة القلب حينما يفضى بأعمق اللواعج والعواطف .

وهم يغنون أشعارهم على الربابة « يمزاد » .

والعجائز تحكين الحكايات والأساطير للأطفال قبل النوم . .
وأشهر الأساطير تلك التى تحكى أن الصحارى فى الماضى البعيد كان يسكنها ناس ينبحون كالكلاب ولا يعرفون الله ، وأن ملكهم عكار كان عاتيًا جبارًا ، وأنه مات مقتولاً وبنيت له مقبرة هائلة من الحجارة .

وموسيقى الطوارق هى معزوفات على (تمزاد) والطبول والسلم الموسيقى خماسى مثل الموسيقى السودانية .

ولا يعزف الربابة « تمزاد » إلا النساء . . وإجادة اليمزاد علامة على حسن تربية البنت ونبل عنصرها . . وبعض الفتيات عازفات قديرات ذوات شهرة بين قبيلتهن يقطع لهن الرجال أميالاً من الصحارى ليستمعوا إليهن .

وعادة اللثام بالنسبة للرجل والسفور بالنسبة للمرأة عادة غريبة من الصعب تفسيرها .

والنظرية القائلة بأن اللثام يلبس كوقاية من العواصف الرملية لا تفسر لنا لماذا لا تلبسه المرأة أيضاً . . والنظرية التى تقول إن الرجل يلبس اللثام ليتخفى عن عدوه نظرية غير صحيحة لأن الرجال يتعارفون على بعضهم بالرغم من اللثام .

وأغلب الظن أنه نوع قديم من التحريم الوثنى الذى كان يعتبر فم الرجل عورة « لأنه مدخل الهواء والماء والطعام ومخرج التنفس ومخرج الكلمة الطيبة والكلمة السوء أو هو باب الروح الذى يمكن

أن يدخل منه الجن والأرواح الطيبة والشريرة » ولهذا وجب أن يحجبه الرجل فلا يكشفه أبدًا .

والمرأة تقول فى امتداح زوجها إنها عاشت معه عشرين سنة دون أن ترى فمه . .

وحينما يحدث أن يقع اللثام فجأة فإن الرجل يسارع بيده ليحجب فمه وكأنه عورة فعلا ويسارع بيده الأخرى ليلتقط اللثام من على الأرض .

ومنتهى سوء الأدب أن يكشف الرجل فمه أمام المرأة حتى ولو كانت زوجته .

ولا يمشى بدون لثام غير الأطفال فإذا أدركوا سن البلوغ ألبسهم آباؤهم اللثام فى احتفال يقام خصيصًا لذلك ومن تلك اللحظة يسمح لهم بحضور مجالس السمر وينظر لهم على أنهم أصبحوا رجالاً .

إن اللثام علامة كمال الرجولة .

وحتى فى أثناء الأكل على الرجل ألا يكشف عن فمه . . عليه أن يأكل من تحت اللثام ومن يكشف عن فمه فى أثناء الأكل فهو يدل على وضاعة تربيته وسوء منبته تمامًا كمن يأكل بأظافره عندنا .

أما لماذا لا تلبس المرأة اللثام فهو أمر غير مفهوم .

ولماذا اعتبرت التقاليد فم الرجل عورة ولم تعتبر فم المرأة عورة .

هذه كلها أسئلة بلا جواب .

والطوارق لا يختنون البنات . والختان عملية مقصورة على الذكور .

وختان الأطفال يتم فى اليوم السابع .

كما أن تسمية الأطفال تتم أيضًا فى اليوم السابع . . ويسميهم أعمامهم وليس آباؤهم .

والزواج يبدأ بالخطبة والأب هو الذى يخطب لابنه .

لكن البنت فى الطوارق تختار فى حرية . . وتوافق أو لا توافق . . والمهر عادة سبع رءوس من الإبل أو ما يقابلها من الخراف ويتم حفل العرس بالموسيقى والغناء « أغنية شجرة الزيتون » وفى نظر الدكتور فرمان إن هذا دليل على بقايا وثنية لأن شجرة الزيتون من الأشجار التى كانت تعبد أيام الوثنية الأولى .

وتبدأ العلاقة الزوجية وتستمر سنة وأحيانًا خمس سنوات ، تذهب الزوجة كل ليلة إلى الزوج لتبيت معه ثم تعود لأهلها فى الصباح ويسمون هذه الفترة فترة التأهيل .

وبعد هذه الفترة تعد خيمة جديدة بمستلزماتها يوضع فيها جهاز العروس وتدخل امرأة عجوز لتقرأ تعاويذ خاصة لطرد الجن . . وبعد ذلك تبدأ الحياة المشتركة .

والطلاق يحدث بسبب العقم وسوء المعاملة وأمراض مثل

الجذام والجنون ، وعلى المرأة بعد الطلاق أن تقضى شهور العدة «كما فى الإسلام» قبل أن يجوز لها الزواج من جديد .

والطوارق (الغدامسة) اشتراكيون بالفطرة ، فإذا ذبح أحدهم ذبيحة فهو يطعم كل الجيران ويقسم الذبيحة بالتساوى على القبيلة . . ولا أحد يأكل اللحم وحده ، وكذلك إذا تقدم السن بأحدهم فإن كل القبيلة تشترك فى سداد حاجاته ، وكل واحد يعطيه نصيباً من السكر والشاى واللحم والأقمشة .

ولا يوجد طوارق يشحذ .

والسارق يعاقب بالطرد والنبذ والمقاطعة الكاملة من القبيلة .

والقاتل يحكم عليه بالقتل . . والحكم يصدره الرئيس الأعلى للقبائل « أمينوكال » .

والطوارق معمرون والواحد منهم يبلغ الثمانين وهو محتفظ بجميع لياقاته وفى صحة جيدة . . والسر فى ذلك هو حياة الهواء الطلق والطعام القليل وبساطة المعيشة وخلوها من القلق والهموم .

والطوارقى لا يأكل إلا وجبة واحدة وباقى اليوم يشرب اللبن فى أثناء الترحال الطويل يكتفى بشرب اللبن وأكل التمر وهو يشرب من اللبن كميات كبيرة ، وأحياناً لتركامل فى المرة الواحدة وهو دائماً لبن حامض . . وهو لا يعرف الخمر ولا المخدرات . . ويمضغ الدخان ولا يدخنه وهم يحكون عن أوفانايت الذى كان مغرماً بتدخين البيبه

وعاش ١١٥ سنة .

والطوارق لا يرهب الموت وهو عندما يحضره الموت ينطق بالشهادتين إذا كان مسلماً وإلا فهو يرفع إصبعه السبابة ويطلق آخر تنهيدة .

ويعقب الموت الغُسل ثم التكفين والدفن على الطريقة الإسلامية حيث يمدد متجهاَ إلى القبلة ثم تفك خيمة الميت ويصبح مكانها حرامًا لا ينصب أحد خيمته فيه .

وترفع الراية البيضاء على الخيمة حينما يموت أحد فيها .

والحداد والملابس السوداء واللطم والندب والعويل أشياء غير معروفة بين الطوارق والكلمة التى تقال عند الموت لأهل الميت . . علينا أن نفرح فقد ذهب من نحب إلى الجنة .

والزوج يلبث ثلاثة أيام بعد وفاة زوجته فى خلوة كاملة داخل خيمته لا يبرحها . .

والزوجة تظل أربعة أشهر وعشرة أيام فى اعتكاف كامل ثم بعد هذا تستطيع معاودة الحياة الاجتماعية العادية وتتزوج إذا أرادت .

والزوجة لها مقام عال ولها احترام فى بيت الزوجية وهى تشارك زوجها جميع المسئوليات والأعباء ورأيها يؤخذ فى كل الشئون . . وتعدد الزوجات غير معروف . . بين الطوارق مع أن الإسلام يبيحه . . ولا تفسير لهذه الظاهرة سوى أن الطوارق قد ورثوا مع

ما ورثوه من تقاليد « تقديس الأم » استمراراً للقوانين القديمة التى كانت تضع الأم على رأس القبيلة وتنسب الابن لأمه لا لأبيه وتعطى المرأة الحق فى أن تتزوج أكثر من زوج وأن تكون الحاكمة على أزواجها الرجال والحاكمة على القبيلة كلها .

وفى كتاب تاريخ السودان نجد بالفعل المؤلف يروى لنا أن فى سنة ١٤٧٥ كانت تقطن السودان قبيلة من البربر تحكمها امرأة اسمها « بيجوم كابى » .

ومعنى ذلك أن نظام سيادة الأم كان معروفًا بالنسبة للبربر القدامى . .

وبالرغم من انقراض هذا النظام فإنه مازال يخلف تلك الآثار من تقديس المرأة فى قبيلة الطوارق . . فالمرأة تعمل وتعزف الموسيقى وترأس الحفلات وتختار حبيبها وتختار زوجها . . وترفض تعدد الزوجات بالرغم من جواز ذلك شرعًا .

ومن أسماء الرجال . . أوخا . اخديدى . أخيا . . أخنوخا . .

وأخيا التارجى كان فارساً شهيراً حارب الأتراك فى غات وقتل حاميتها وقاد ثورة مطالبًا بالامتيازات السياسية .

وأخنوخا التارجى عاصر نابليون . . وأرسل له نابليون الرسل ليعقد اتفاقية بين فرنسا والطوارق فرفض أخنوخا . .

ومن أسماء الفتيات . . فتاتا . . ومالا .

القبلات بحك الأنف بالأنف

يبدو أن قلب الصحراء الليبية كان مسرحاً لإنسان ما قبل التاريخ . . تدل على ذلك الثروة الهائلة من الآثار والمخلفات من العصر الحجرى . . ما تكاد تحفر فى الرمل حتى تعثر على تلك الآلات العجيبة . . سكاكين وبلط وحراب وسهام ومناشير ومبارد حجرية وإبر من العظام .

وتلك التلال من الحصى المرصوص عند أقدام الجبال هى ما تبقى من شواهد المدافن القديمة . ما تكاد تحفر تحتها حتى تجد مئات من الهياكل العظمية والآدمية لهؤلاء الذين رقدوا رقود الموت منذ عشرة آلاف سنة .

وعلى جدران الكهوف ترك الفنان الأول رسومه الأولى وأولى

مغامراته فى عالم الفن . . صوراً محفورة بأناقة مذهلة وملونة للغزال والزراف والثور وللرقص والصيد والزواج والحب رسمها قبل أن يعرف كيف يكتب وكيف يتكلم .

وكل تلك القبائل كانت من أجناس ما قبل التاريخ « من ذلك الجنس الذى ظهر فى الشمال الأفريقى والذى يعرف باسم كروماجنون » .

ويقال إن أصل الطوارق من البربر وأصل البربر من جنس الكروماجنون .

وفى أحد الآراء أن الفراعنة أنفسهم من البربر ويساق هذا الرأى كتفسير للطفرة الحضارية التى حدثت فى وادى النيل وكيف كانت بتأثير هجرات من الكروماجنون والبربر .

ومعنى هذه النظرية أننا سنلتقى مع الطوارق فى سابع جد .

وفى رأى آخر أن أصل الفراعنة أسيوى .

والكلام كثير فى أصل الفراعنه والحقيقة غير معروفة .

لكن مما لا شك فيه أن الصلات بين مصر وليبيا عن طريق التجارة والهجرة والحروب لم تنقطع طوال التاريخ القديم .

أما الطوارق البيض والشقر ذوو العيون الزرقاء فهم من دماء أوربية جاءت إلى الشمال الأفريقى عن طريق البحر فى الزمن القديم . . وفى قول آخر أنهم من أصل أفريقى وفينيقى وكريتى .

وطوارق الجنوب السود ذوو التقاطيع الزنجية من أصل سودانى جنوبى .

والمؤرخون العرب لهم نظرية خاصة فى أصل البربر . يقول ابن عبد الحكم إنهم من فلسطين وإنهم هربوا بعد مقتل ملكهم جالوت بيد النبى داود وهاجروا إلى ليبيا .

ويتحدث صاحب المسالك عن هجرة قبائل الهوارة والزناتة والداريسة والمخيلة وانتشارهم بين طرابلس والدواخل الصحراوية .

ويقول ابن خلدون إن البربر هم أولاد كنعان ونوح .

أما الرأى الأوربى الذى يقول بأن الطوارق فينيقيون هربوا من وجه الإسكندر المقدونى فهو رأى خاطىء لأن وجود هذه القبائل قديم وثابت منذ أيام هيرودوت وقبل الإسكندر بزمن طويل .

ومن طريف الوثائق ما كتبه هيرودوت يصف جبلا سماه بجبل الأطلس يقول هيرودوت .

وقد وجدته جبلاً مرتفعا شديد الانحدار من ناحيته حتى ليستحيل على الناظر أن يرى قمته التى يغطيها الضباب صيفا وشتاء . . ويقول سكان الوادى إن هناك على القمة تقوم دولة السماء ويسكن أهل الأتلانتيس .

ورد هذا الكلام فى رحلة هيرودوت إلى شمال أفريقيا ووصوله إلى منطقة طوارق الهجارة فى الجزائر . وأغلب الظن أنه قصد بالقمة

التى وصفها القمة المعروفة الآن مونت أودان .

ولكن خرافة دولة السماء وقارة الأتلانتيس ما لبثت أن تناولها أفلاطون ليجعل منها المسرح الخيالى لجمهوريته حيث تصورها جزيرة فى وسط البحر يسكنها صفوة من المثاليين ويقوم عليها مجتمع نموذجى هو الذى وصفه فى جمهورية أفلاطون .

ثم انتقلت خرافة الأتلانتيس لتصبح القارة المفقودة بين أفريقيا وأمريكا التى ابتلعها المحيط وحق عليها عقاب الإله العادل حينما خرجت عن طاعة الله « قصة أشبه بالجنة وطرد آدم » ومنذ ذلك الحين دخلت قارة الأتلانتيس إلى كتب الغيبيات وتحولت إلى لغز مثير . . والأصل سطر كتبه هيرودوت فى رحلته إلى طوارق الهجارة .

وهيرودوت يسمى قبائل الطوارق « ناسامون » ناس آمون ويذكر عنها أنها قبائل تصطاد الجراد وتجففه فى الشمس ثم تطحنه وتمزج الدقيق الناتج باللبن « وهى عادة موجودة عند بعض الطوارق إلى الآن » .

ويذكر هيرودوت أن « ناسامون » لهم أيام مقدسة يترددون فيها على قبور أجدادهم لأخذ مشورتهم فى أمور الحياة الدنيا أو لسؤالهم عن المستقبل « وهى عادة مازالت متبعة عند نسوة الطوارق . يبتن إلى جوار المقابر ليحلمن بأخبار المفقودين والغائبين » .

ويذكر هيرودوت طريقة تصفيف الشعر وتسريحه عند الطوارق بما يتفق مع الملاحظات المشاهدة حاليًا .

وقد لمعت أسماء غربية لرحالة ومؤرخين ذرعوا رمال الصحارى وألفوا المراجع القيمة أمثال . . البكرى . . والإدريسى . . ابن سعيد . . ابن فاطما . . أبو الفدا . . وابن بطوطة .

يقول ابن بطوطة إنه عبر الصحراء الليبية إلى قبيلة برداما وهى قبيلة من البدو الرحل لا تستقر فى مكان وتمتاز بأن نساءها جميلات سمينات ويقول فيهن ابن بطوطة إنهن أجمل ما رأى من نساء العالم .

ويضرب ابن بطوطة فى الصحراء شهورًا يخترق فيها مناطق جرداء لا ماء فيها ولا شجر ويصف لنا مناجم للملح والنحاس ومياه حديدية تغسل فيها ثيابك فيسود لونها . . ثم يصف لنا صحبته لقافلة بها ستمائة فتاة من الرقيق . . ثم يصف لنا وصوله أخيرًا إلى منطقة الهجارة ورؤيته لقبيلة عجيبة رجالها ملثمون ونساؤها سافرات « الطوارق » .

ولم تترك هذه القبيلة أثرًا طيبًا فى نفس ابن بطوطة فقد استوقف بعض فرسانها قافلته وأخذوا منها أقمشة وبضائع وكان ذلك فى رمضان ويقول ابن بطوطة عن حرمة شهر رمضان إنه حتى لصوص الصحارى يتعففون فى هذا الشهر عن السرقة فلا يمدون أيديهم إلى

شيء ولو كان مفقوداً وبلا صاحب .

أما ابن خلدون فينقل ما يرويه عن « الطوارق » من شهادة الآخرين .

أما الرحالة الأوربي انتونيو مالفونتي فيصف « الطوارق » بأنهم جنس راق وفرسان على درجة عالية من النبل والشجاعة ، ويقول إنهم يعتمدون فى طعامهم على اللبن والأرز واللحم . وإنهم ألد أعداء اليهود ولا يجرؤ يهودى على الاقتراب من مضارب خيامهم .

ويقول هيرودوت إن عبادة الأجداد كانت متبعة فى ليبيا القديمة . . وبالنسبة للصحراء الليبية القريبة من مصر كانت عبادة إيزيس وتقديم القرابين للشمس والقمر وتحريم أكل الخنزير ولحم البقر طقوساً متبعة . . وبالنسبة للجزء الشمالى من الصحراء كانت الآلهة الإغريقية أمثال إله البحر والخصب والمطر تعبد . . وكانت القرابين البشرية تقدم فى القرن الثالث قبل المسيح .

ومن المحتمل أن يكون الطوارق الأوائل عبدوا آمون . . ولكن لا يوجد ما يؤيد ذلك فى الرسوم والحفائر القديمة . . فلم يعثر إلى الآن على رسم قرص الشمس المعروف .

والرأى الآخر أنهم كانوا يعبدون الحيوان أمثال الثور والبقرة والزراف « العقائد الطوطمية » بدليل ما وجد من رسوم جميلة ومفصلة لهذه الحيوانات .

وبرغم وجود رسم الصليب فى بعض الآثار التاريخية إلا أن دخول المسيحية إليها أمر مشكوك فيه . . وفى رأى ابن خلدون أن المسيحية لم تدخل الصحراء الليبية . . وهو رأى خاطىء لأن المسيحية دخلت « غدامس » أيام البيزنطيين والرومان .

ولكن ابن خلدون يقول رأياً مختلفاً فى الديانة اليهودية فهو يعتقد أن الديانة اليهودية تسللت إلى الصحراء وأن اليهود انتشروا فى قبائل الهوارة بالذات .

ويحتمل أن يكون بعض أجداد الطوارق من اليهود ولكن الأمر المؤكد أن الإسلام اكتسح هذه القلة .

وقد دخل الإسلام الطوارق مع عقبة بن نافع وانتشر بين كل القبائل التارجية ، ولكنه بالنسبة لطوارق الجبل والدواخل الرحل كان إسلاماً سطحياً فمعظم العادات الوثنية ظلت على حالها وظلت اللغة على حالها ، وبقى القرآن كتاباً يقرأ بطريقة ببغاوية دون أن يفهم ، مثله مثل التعاويذ الغامضة الأسطورية .

وهناك مدارس الدين واللغة العربية والقرآن ولكنها قليلة جداً وهى بالنسبة للقبائل الرحل غير معروفة .

ومع ذلك فقد ظل الإسلام على ضعفه هو علم المقاومة الذى تجمع تحت رايته الطوارق الذين حاربوا الاستعمار الفرنسى والإيطالى .

والاعتقاد فى الجن والأماكن المسكونة والأرواح الطيبة

والشريرة التى ترتاد الينابيع والجداول . . والاعتقاد فى الأشجار التى تلبسها الأرواح . . أكثر رسوخاً عند الطوارق الرحل من العقيدة الإسلامية الزائرة . .

وشىء مألوف أن ترى رجلا من الطوارق يرجم شجرة ليطرد منها الجن . . أو امرأة تعلق شبشباً قديماً على باب الخيمة لتطرد الأرواح الشريرة أو تستعمل قرن خروب لمنع الحسد . . أو عجوزاً تبيع أحجبة وتعاويذ أو جلد بقرة للوقاية من لدغة العقرب والثعبان وهم يشمون جلد بقر الوحش كعلاج من لدغة العقرب .

والطارجى الذى يحلم بأنه يأكل البلح يفسر حلمه بأنه سوف يصاب بجراح . . فإذا حلم بثعبان فهو شر مستطير . . وإذا حلم بأنه يحمل راية بيضاء فهو فأل حسن ، وإذا حلم بأنه يحمل راية سوداء فهى كارثة .

وخرافة شائعة ، إن الذى يصاب بجرح يمتنع عن شرب اللبن اعتقاداً منهم أن اللبن سوف يساعد على تكوين الصديد .

ومعظم هذه العقائد هى بقايا وثنية لم يستطع الإسلام أن يمحوها من الأذهان .

وقد ظل « الطوارق » يعيشون حياة مستقلة فى أغلب فترات حياتهم لم يستطع الغزاة من الفرس والرومان ولا التتار والهكسوس والوندال أن يقتحموا أسوار هذه العزلة لبعدها ولأن متاهات من

الصحارى الجرد كانت تحمى هذه العزلة من كل جانب .

ولهذا استطاع « الطوارق » أن يصنعوا لأنفسهم حياة وعادات وتقاليد وأعرافًا وطباعًا انفردوا بها ومازالوا يتميزون بها .

وكلما توغلنا فى الصحراء وخرجنا من « غدامس » إلى أطراف البادية ومراعى الجبال والتقينا « بالطوارق » الأول الذين مازالوا يعيشون حياة الفطرة والتنقل بين قبائل الهجارة فى الجزائر والسودان والنيجر . استطعنا أن نتعرف على هذه العادات البدائية التى مازالت على حالها لم يهذبها الإسلام . . ومنها تلك الحرية الجنسية التى يتمتع بها الأولاد والبنات . . فمنذ أن يبلغ الولد سن الخامسة عشرة ويضع اللثام ويصبح رجلاً . . يصبح له الحق فى حضور « الهال » وهو مجلس الكبار حيث يتسامر الكل فى جو مختلط مفتوح فى شبه حفل يبدأ بعزف الموسيقى « اليمزاد » « وتعزفها فى العادة فتاة » ، ثم السمر ثم الغزل فيميل كل شاب على الفتاة إلى جواره يقبلها بحك الأنف فى الأنف ويتواعدان على اختلاس اللقاءات فى الخلاء . . ويحدث عادة أن تتم اللقاءات المختلسة فى نفس الليلة حيث يمارس الأولاد والبنات لعبة الجنس بلا حرج مع مراعاة تجنب الحمل .

والبكارة شىء غير معروف فى « الطوارق » « بحوث الأب فوكو والدكتور فولان » .

وفى حالات الحمل النادرة تذهب البنت إلى الداية فتكتب لها تعويذة تذيبها فى الماء لتشربها فإذا لم يحدث الإجهاض قامت بإجهاضها فإذا حدثت الولادة يخنق المولود . . والبنت التى يعرف عنها أنها حملت دون زواج ينظر إليها فى احتقار من الجميع .

وبسبب حرية العلاقات الجنسية فإن الزواج لا يحدث إلا فى سن متأخرة ثلاثين سنة بالنسبة للرجل وعشرين سنة بالنسبة للبنت .

وتبادل الجنس ليس عاراً عند « الطوارق » وإنما العار أن يكون ذلك بين رجل وجاريته أو امرأة وعبدها .

ومن الصعب الحكم على السلوك الجنسى للمرأة بعد الزواج من حيث الخيانة والوفاء ولكن من المعلوم أن عقاب الزانية هو الموت . . ومن المعلوم أيضًا أن الرجل قد يخون زوجته مع جارياته وعبدانه . . وفى حالة حمل إحدى هذه الجاريات تكون فضيحة ويحدث فى مثل تلك الحالات أن تغضب الزوجة عند أهلها ولا تعود إلا فى حالة دفع تعويضات مادية كبيرة .

ومن التقاليد العجيبة أن لقاءات الجنس بين العشاق تتم فى خلوة وخصوصية ، فإذا ضبط عزول هذه الخلوة فعلى العشيق الذى افتضح أمره أن يبادر بإهداء العزول هدية فورية وإلا فإن العزول يرفع اللثام كاشفاً عن شخصيته ويصبح له الحق فى أن يحل محل غريمه فى خلوته . .

مجتمع غريب فى الخلاء

مجتمع « الطوارق » مجتمع طبقى ... على رأس جميع القبائل نجد الأمير « أمينوكال » وهو الحاكم الأعلى لجميع القبائل ويصل إلى الحكم وراثة عن أبيه كالنظام الملكى .. ورمز الإمارة طبل كبير يعلق على باب خيمته ويقرع هذا الطبل عند قدوم الضيوف أو فى الحفلات أو فى الحروب .. وخرق الطبل هو أكبر إهانة يمكن أن تلحق بالأمير .

والأمير هو الذى يعلن الحرب ويدير خططها وهو الذى يفض الخلافات بين القبائل وله خليفة ينوب عنه فى غيابه . وهو يتقاضى الضرائب من جميع القبائل .

ويلى « أمينوكال » فى السلم الطبقى شيوخ القبائل ثم الفرسان

ورجال الدين ثم الرعاة ثم الحرفيين وفى القاع نجد العبيد والخدم والجوارى .

والتزاوج بين فارس وجارية أمر مستهجن جداً ومشين .

والفرسان لا عمل لهم إلا الحرب وحراسة القوافل والسطو على الأعداء .. وهم يحتقرون الحرفيين ويعتبرون العمل اليدوى وضيعاً .

وتستطيع أن تعرف الفارس من مشيته فهو يختال فى خطواته ويختال فى كلماته ويتأنق فى ملبسه ، وأحياناً يلبس لثاماً أحمر زيادة فى الأناقة .

ورجل الدين « شريفن » من الكلمة العربية شريف .. له مكانة محترمة فى قبيلة « الطوارق » وهى يعفى من الضرائب ويعتبر فى مستوى الفارس بالنسبة للمكانة الطبقية .... وهو الذى يدرس القرآن والشريعة الإسلامية لأطفال القبيلة .

والعبيد والجوارى وكلهم رقيق وأسرى غنمتهم القبيلة فى حروبها أو اشترتهم من تجار النخاسة .. يعاملون بإنسانية فالعبد يمكن أن يمتلك رءوساً من الماشية أوحصاناً ، وهو إذا بلغ سن الزواج فإن سيده يعطيه مهراً ليتزوج .. وإذا أنجب السيد من جارية فإن الابن الذى ينجب من العلاقة يحق له الميراث .. ويستطيع العبد أن يخرج من خدمة سيده ليلتحق بخدمة سيد آخر بسبب سوء المعاملة .. وإذا تزوج السيد من جاريته فإنها تصبح حرة .. وبعد إلغاء الرقيق تحول

العبيد إلى خدم وظلوا ملازمين لقبائل سادتهم ..

أما أصحاب الحرف فهم فئة محتقرة وكل من يزاول عملاً يدويّا محتقر عند « الطوارق » . والطارق يخاف من الحداد ومن كل من له صلة بالنار أو من يطرق المعادن ويظن أنهم على صلة بالشياطين والجان ولذلك يسكن بعيدًا عنهم ويتجنبهم :

والحلاق عند « الطوارق » يحلق الشعر ويخلع الأسنان ويقوم بالعمليات الجراحية الصغيرة كالطهارة وإيقاف النزيف وعلاج الجروح . والحرفيون يعتبرون من جنس مشبوه وهم يتهمون بالتجسس أحيانًا وبالخيانة ولكن لا أحد يجرؤ على قتلِ حرفى لأنه يخشى من انتقام الجن لروحه .

والحرفيون أذكياء وحكماء وفيهم من يتقن الكتابة ومن يلقى الأقاصيص والحكايات وبعضهم يرقى إلى درجة مستشار الأمير .

وهم يتلثمون كبقية « الطوارق » ولكن لهم لغة خاصة سرية يتخاطبون بها ولهم تعاويذ وطقوس خاصة .. وهم لا يزيدون فى مجموعهم عن خمس أو ست عائلات .

والمعتقد أنهم من أصل يهودى . وأنهم مهاجرون من فلسطين يدل على ذلك تلك المطروقات الفضية الأنيقة الراقية والمفاتيح والأقفال المعقدة التى يصنعونها والتى لا تتناسب مع الحياة البدائية التى يعيشها « الطوارق » وتدل أيضًا عاداتهم العنصرية فى عدم

الزواج من خارج جنسهم .

واسم هذه الفئة العاملة باللغة التارجية « إينادن » أى « من لا اسم لهم » وهذا إمعانًا فى تحقيرهم .

وبعض قبائل الطوارق غنية نسبيًّا فى قبيلة مثل كيل هجار أكثر من عشرة آلاف رأس من الإبل وفى قبيلة أخرى مثل داج إرلى ، لا تزيد الإبل على ألف رأس فى حين أن قبيلة ثالثة مثل التاتيوك لا تزيد ثروتها على ثلاثمائة رأس .

والطوارق يعتمدون فى حياتهم على الرعى والصيد متنقلين من واد إلى واد إلى حيث يجود المرعى ويكثر المطر ، وأهم محصول طبيعى يتاجرون فيه هو الملح يحملون به القوافل إلى السودان لتعود بالتالى محملة بالأقمشة والحبوب فإذا شح المطر وجف المرعى انتشروا فى الصحارى والجبال يقطعون الطريق على القوافل .. فإذا استمر الجفاف نزحوا إلى السودان .

وهم فى الشتاء يفضلون سكنى الأودية المنخفضة فى أحضان الجبال التى تحميهم من الرياح .. وفى الصيف يفضلون سكنى الأعالى والقمم حيث الجو طليق .

وكل قبيلة لها مضارب خيامها ولها مجالاتها الخاصة التى تتحرك فيها وهى تعود من موسم لموسم لنفس الأماكن التى بدأت منها .

والخيام تصنع عادة من جلد الماعز يدهن بالزبد وبمادة حمراء

لوقايته من الشمس والمطر .

والمعتاد أن ينام الرجل فى شرق الخيمة ومعه الأولاد على حين تنام الزوجة فى غربها ومعها البنات .

ولا ينام على سرير إلا الأمير وشيوخ القبائل .

أما المطبخ فهو دائمًا خارج الخيمة وهو عبارة عن موقد حوله بعض الطوب والحجارة لحمايته من الريح .

وهم لا يستخدمون حجارة البازلت السوداء لأنهم يعتقدون أنها مسكونة بالجن والسبب أنها تفرقع بصوت شديد بتأثير النار .

والنار عند الطوارق لها أسطورة مقدسة .. فهم يقولون إن النار خلقها الله للإنسان ليطهى عليها طعامه ولكن الشيطان عرف سرها وسرقها ثم أعطاها لصديقه الحداد ليصنع بها الحديد ولهذا خلق الله الجحيم وخصصها للشيطان عقابًا على سرقته .

وهم لا يوقدون النار فى داخل الخيمة وإنما دائمًا خارجها .

والأثاث عبارة عن صندوق ومخلات بهما ملابس وعدة أطباق وملاعق خشبية وأوتاد لتثبيت الخيمة وإناء وطاسة لحلب اللبن وأكواب وفناجين .

والمرأة هى التى تنصب الخيمة وهى التى تفكها وتحملها على الحمير وهى التى تصنع الأدوات الجلدية والأطباق والأوتاد الخشبية .. وهى تستعمل فى تنقلاتها الحمار ولا تركب الإبل إلا من

كانت زوجة لفارس أو أمير.

وكل قبيلة تخزن ما عندها من فائض التمر والحبوب والمواد الغذائية فى مخابئ، وكهوف بالجبل وعندهم عقيدة أن الله يرعى هذه المخابئ ويسهر عليها بنفسه. وهم يهاجرون ثم يعودون إليها فيجدونها على حالها، فالتارجى لا يمد يده أبداً إلى مثل تلك المخابئ.. وعقاب السارق فى مثل تلك الحالات شديد.

وهناك أكثر من ستة أصناف من الأعشاب الجبلية والجذور مما يأكله التارجى فى أثناء الطريق هو ومواشيه ليهدئ جوعه.

واللبن والزبد والجبن والحبوب والتمر هى غذاؤه الرئيسى وهو يأكل اللحم فى حالات قليلة حينما تشرف إحدى مواشيه على الموت فيذبحها وحينما تجف المراعى فيذبح الناقة التى يراها تموت جوعاً أمامه.. وهو يأكل الأرانب والغزلان والجراد.. والجراد المشوى طعام فاخر عنده.. أما لحم الدجاج فيعتبر نجساً مثل الخنزير وبالمثل السمك.

ولا يجوز أكل ذبيحة لم يقرأ عليها اسم الله ولم تذبح وفقاً للشريعة الإسلامية وواضح من أنواع التحريم أنه يجمع بين التحريم الإسلامى والتحريم الوثنى.

والأكلة الشعبية هى نوع من العصيدة باللبن.

وهم يستعملون الجبن المجفف والطماطم والبصل فى تصنيف

ألوان من الصلصات وفى حفلات الزواج والحفلات الدينية تذبح ناقة وتشوى على النار وتقدم مع الكسكسى وتحفظ الرأس والعنق للنساء ويقدم الفخد والموزة والضلوع للضيوف .

وهم يأكلون بالملعقة .. وعادة الأكل بالملعقة عادة غريبة بالنسبة للحياة البدائية التى يحياها التارجى ، ولكن تفسيرها هو حرصه على عدم رفع اللثام فى أثناء الأكل وبالتالى احتياجه إلى وسيلة كالملعقة لدس الأكل فى فمه .

والإبل والماعز والماشية والحمير والكلاب هى الحيوانات التى يربيها التارجى .

وهم فى العادة يختمون إبلهم بعلامات خاصة كل قبيلة لها علامة مميزة تختمها على رقبة الجمل أو فخده بطلاء أحمر .

ورأس إبل عندهم أثمن من وزنة ذهب ، أما الحمير فلا يهتمون بها وأحيانًا لا تعرف القبيلة عدد حميرها وأحيانًا حينما يشح المرعى تترك القبيلة جزءًا كبيرًا من حميرها وترحل .

وهم يصطادون الغزال وبقر الوحش والزراف .. يخرج أربعة من الطوارق معهم عشرة كلاب فى فرقة صيد ويطاردون الفريسة حتى تسقط إعياء وهى فى حالة الغزالة وسيلة كافية أما بقر الوحش وهو حيوان شديد البأس يدافع عن نفسه حتى الموت فيحتاج الأمر

إلى حصار وقتال بالحراب أحيانًا يذهب ضحيته عدد من الكلاب أو الصائد نفسه .

ولكنهم الآن يستعملون البنادق فى كل شىء بدرجة تهدد وحوش الصحارى بالانقراض .

والتقاليد المتبعة إذا طاردت قبيلة حيوانًا فى أرض قبيلة أخرى واصطادته أن تعطى جلده ورأسه ونصيباً من اللحم للقبيلة صاحبة الأرض .

والطوارق رحل لا يزرعون الأرض احتقاراً للعمل اليدوى واحتقاراً للاستقرار ولكن فى بعض الأماكن حيث يغزر المطر وتكثر العيون الجوفية تجد التارجى يزرع القمح والشعير والجزر والعدس والبصل والبطيخ والشمام .. وتجد حدائق من التين والعنب والنخيل .

لكن مثل تلك المزروعات تصبح تحت رحمة الحر والبرد والعواصف والسيول والجفاف وجدب الأرض وافتقارها مع تكرار الزراعة .. والتارجى ليس عنده طول بال الفلاح ولا صبره وهو ما يلبث أن يهجر الأرض التى أجدبت دون أن يفكر فى إصلاحها .

وهو حينما يزرع فليأكل لا ليبيع .

وسعادته وهو يضرب فى الفلوات تعدل محصول ألف فدان .. يكفيه ما يحلب من ألبان إبله وما يقطف من بلح وتمر فى الطريق

وما يجود به المرعى فإذا جف فأرض الله واسعة .

وليست من عادة التارجى الاغتسال يوميًا « بسبب شح الماء فى الصحارى » وهم يقولون إن الاغتسال يوميًا ضار با لبشرة وهذا صحيح نظرًا لملوحة المياه وجفاف الجو كما أنه يؤدى إلى تشقق الجلد .. وهم لهذا يستعملون الزبد للتطرية .. ويتوضئون للصلاة بطريقة التيمم « بالرمل الجاف بدون ماء » .

ولكنهم شديدو العناية بأسنانهم فهم يستعملون المسواك والمضمضة بالماء عدة مرات بعد الأكل .

وهم يحلقون للأطفال رءوسهم إلا خصلة يتركونها فى الوسط . والنساء يضفرن شعورهن ضفائر على الجانبين ويستعملن الزبد للشعر .

والنساء والرجال يحلقون شعر العانة ويقصون أظافرهم ويكحلون عيونهم ومخلفات الشعر والأظافر تدفن فى مكان بعيد حتى لا يسحر عليها أحد أو يقرأ عليها تعاويذ مهلكة .

والوشم غير معروف لكن امرأة تستعمل الأحمر للزينة .

وفى المهرجانات قد تجد امرأة تنقش على وجهها رسومًا عجيبة « طريقة الهيبيز » وترقص كنوع من التهريج أو كبقايا طقوس وثنية .

والمرأة التارجية أقصر من الرجل وأكثر سمنه واستدارة وهى

ذات عيون واسعة كحيلة وجبهة عالية ويدين دقيقتين رقيقتين ..
والسمنة عنصر هام فى الجاذبية الجنسية عند النساء وهن يتوسلن بكل طريقة ويأكلن أنواعاً خاصة من الأعشاب يعتقدن أنها تسمن «كالمفتقة» عندنا .

علاج الإمساك بشجرة الأجرجر

الطوارق أطباء بالفطرة .

وهم يطببون المرضى بالفصد والكى والحقن الشرجية والعلاج بالأعشاب .

وعندهم مايشبه تذكرة داود وعلم غزير بالأعشاب القابضة والمسهلة والمخدرة والمدرة للبول والمقوية ويستعملون الورق المغلى والمجفف والمسحوق والبذور والجذور بفطنة ربما وصلت إليهم عن طريق العرب .

وهم يستعملون لبن الحمارة كعلاج للسعال .

ويجففون شجرة الأجرجر ويدقونها ويستعملونها علاجاً للإمساك .

ويداوون الإسهال بشجرة النبق .

والأمراض عندهم قسمان مرض جسدى يعالج بالأدوية ومرض روحى يعالج بالسحر «آمى كيللو» .

وعلاج من تلبسه الأرواح الشريرة هو إلقاء الرعب فى قلبه عن طريق رقصة مخيفة بالأقنعة تتخللها الصرخات والطبول حتى يفقد الوعى ويدخل فى غيبوبة تخرج فى أثنائها الروح الشريرة وتفر مذعورة ولا تعود .

وهم يمارسون الجراحات البسيطة كالطهارة وعلاج الجروح وتجبير الكسور والقطع الحادث بعد الطهارة يدهن عادة بالزبد .

والأناقة وحسن المظهر مسألة غاية فى الأهمية بالنسبة للتارجى . أهم من الطعام أن يتأنق ويختال ..

والطوارق أصحاب قامة طويلة وفرع باسق وأكتاف عريضة وهم يرفعون رءوسهم فى اعتزاز حينما يمشون كأنهم أمراء أسطوريون ، ويلبس الواحد منهم سروالاً واسعًا يغطى قدميه وفوق السروال عباءة فضفاضة بيضاء أو زرقاء أو ملونة وعلى الرأس تلفيعة تلتف كالعمامة وتغطى الرأس ثم تنسدل كاللثام فوق الفم والأنف فلا يبقى ظاهرًا منه إلا العينان السوداوان البراقتان .. وفى القدمين يلبس صندلاً .

والرجل يتحلى بالخواتم الفضية المزركشة والأساور المنقوشة من

حجر الشيست .. وعلى الأساور يكتب عادة عهدًا بالوفاء للحبيبة أو دعوة بالقوة والتوفيق فى القتال ..

وهم يتنافسون فى حمل الأكياس الجلدية الأنيقة .. جراب جلدى للولاعة .. وجراب جلدى للمسواك .. وجراب جلدى للإبر. وجراب جلدى فيه آية قرآنية أو تعويذة .. يحملها فى سلسلة مدلاة على صدره ..

وبالنسبة للنساء هناك تصانيف أكثر من الحلى .. هناك خواتم من الفضة كبيرة ذوات الفصوص وأحيانا بدل الفص تجد علبة صغيرة للعطر .. وتلبس المرأة اثنين أو ثلاثة من هذه الخواتم الكبيرة فى اليد الواحدة .. وهى دائما من الفضة .. لأن الذهب مكروه عند الطوارق ولا أحد يتحلى به لأنهم يعتقدون أنه مجلبة للشر والطمع .

وهناك رواية « أكيل » يرويها مؤلف من تمبو كتو عن رئيس الطوارق « أكيل » الذى كان يرفض أن يلمس الذهب بيديه لأنه يجلب النحس .

والأساور المنقوشة من الفضة والمحلاة بفصوص اللؤلؤ .. والأساور الزجاجية والأساور الجلدية المحلاة بفصوص كريمة .. والقلائد التى تتدلى من العنق وفيها فص من العاج .. والكردان .. والبتنتيف ذو الفص الأحمر من المرجان .. والدلايات الفضية المزركشة .. كلها حلى ضرورية بالنسبة للمرأة .. والحلق يكون عادة

من الفضة وكبير ويتدلى على العنق .

وفى الشعر والضفائر حلى أخرى تتدلى على الظهر هذا عدا الأحجبة الفضية وجراب الكحل وجراب الإبر .

والنساء لا يلبسن هذه الحلى إلا فى الأفراح والمهرجانات .

أما فى الأيام العادية فتودع هذه الحلى فى صناديق ذوات أقفال حديدية يحمل التارجى مفتاحها فى حله وترحاله .

والمرأة التارجية صانعة ماهرة فهى التى تسلخ الجلد وتدبغه وتصقله وتصنع منه الخيام والحلى الجلدية والصنادل والحقائب ..

وهى أيضاً التى تصنع من الخشب أوتاد الخيمة والصحون وأوانى الحليب .. وهى التى تصنع من القش القبعات والحصر .. وهى التى تغزل من فراء الماشية الحبال المتينة .

وهى تؤدى عملها دائماً بدرجة عالية من الدقة والتفنن .

والفتيات ذوات المنبت العريق يتفاخرن بما تصنع أيديهن من تلك الأدوات . ولا يتركنها للعبيد وإنما يصنعنها بأيديهن ويقدمنها هدايا حب لأصدقائهن .

وصناعة الجلد والخشب والقش والصوف هى الصناعات التارجية الأصلية ولها تقاليد وأسلوب وخصائص وملامح مميزة .

أما الحدادة وصناعة المطروقات وتشكيل الفضة والنحاس وصناعة الأقفال والمفاتيح والولاعات فيختص بها « الأينادين » كما

ذكرنا وهم من أصل يهودى .. وهم يعتمدون على صهر العملة الفضية كمصدر لخام الفضة .. أما الحديد فمن صهر الخردة والعلب الفارغة التى يجمعونها من الطريق .. والنحاس من صهير الخرطوش الفارغ .. ويصنعون منه الأقفال والسكاكين والإبر والملاقط والأدوات الدقيقة .

أما الاسلحة فهى مستوردة فى أغلب الحالات .. لكن بعض القبائل التى تسكن فى أماكن يوجد بها خام الحديد بكثرة تشتغل بتعدين الحديد وتصنع الخناجر والحراب والأسلحة .

أما صناعة الفخار فقد زاولها العبيد .. وهم الذين أدخلوا هذه الصناعة للطوارق .. وهم الذين يصنعون الطواجن الفخارية والأوانى المختلفة .

ونظام القوافل فى الطوارق يختلف عن نظام القوافل عند العرب . فالطوارق يركبون دائماً فى مقدمة قوافلهم لاستكشاف الطريق ويتركون وراءهم مرشدين يوجهون الإبل للاحتفاظ بالصف « والسبب هو ارتفاع وهبوط وتعرج الطرق الجبلية » .. فى حين يركب العرب فى مؤخرة قوافلهم ويتركون الإبل شبه حرة دون مرشدين لسبب واضح أنهم يسكنون فلوات منبسطة لا عوائق فيها وهم لهذا يكشفون الطريق كله من مكانهم فى المؤخرة ويوجهون خط السير دون صعوبة تذكر ويدعون الفرصة للإبل لتتنقل وراء

العشب كيفما شاءت دون قيود الصف فالأعشاب شحيحة ومتفرقة فى الصحارى وليست بالكثرة ولا التركيز كما هى فى الأودية الجبلية ..

والطوارق أحيانًا يؤجرون لحراسة القوافل التجارية مقابل نصيب معلوم من البضائع وأحيانًا يعطون الأمان لقافلة لتمر فى أراضيهم مقابل ضريبة محددة وأحيانًا يقدمون إبلهم ومرشديهم للقوافل مقابل عمولة .. وهى مناسبات تشكل لهم مصادر سخية للدخل .

ولم تكن هناك عملة مسكوكة خاصة بالطوارق .. وإنما كانوا يتعاملون بالمقايضة ويعتبرون مقطع القماش وحدة للتعامل ولكن الجنيه التركى الذهب كان عملة مقبولة .

والقاعدة عند خروج الطوارق بقوافلهم للمقايضة فى السودان أنهم يتركون النساء والشيوخ والأطفال فى مضاربهم ولا يخرج للارتحال إلا الرجال القادرون .

وقطع الطريق على القوافل للسرقة والسطو هو عادة بعض قبائل الهجارة وليس كلها والفرسان يحكون عن هذه المغامرات فى مجال التفاخر والزهو أمام النساء .. وهم يقومون بها بدافع سلب الحلى والثياب الجميلة لإهدائها للعشيقات والحبيبات .

والصيف هو الموسم المختار لمثل تلك المغامرات لأن الجفاف والحر

وشح المرعى يدفع القبائل للتفرق بحثًا عن العشب .

وتوضع الخطة فى المساء ثم يخرج الرجال فى ارتحال سريع بغية انقضاضة مفاجئة قبل الفجر على خيام القافلة .

وبعد معركة سريعة يفر الحراس عادة فيقود اللصوص الإبل ثم يدخلون الخيام ويجمعون ما يجدون من حلى وثياب ويفرون .

ويحدث عادة أن تنقض القبيلة المعتدى عليها فى هجوم مضاد يرصدون له كمائن خاصة عند الآبار التى يعرفون أن اللصوص سيردونها فى طريق العودة .

ويحدث الالتحام ويقع قتلى وجرحى كثيرون .

وأحيانًا يحدث اتفاق سلمى وتدفع القبيلة المعتدى عليها ضريبة محددة من الإبل والثياب فى مقابل تسوية معقولة .

وقطع الطريق على القبائل السودانية يكون عادة بهدف خطف البنات والأولاد لبيعهم فى أسواق النخاسة أو استخدامهم كعبيد .

أما الحروب المنظمة بين القبائل فأكثر ندرة من حوادث قطع الطريق وهى تحدث عادة لأسباب سياسية . تنازع على السلطة أو خلاف حول المراعى .

وهم يختارون الشتاء موسمًا لحروبهم حيث تكون كل قبيلة قد جهزت نفسها بخزين من التموين والمواد الغذائية .

ومن تقاليد الحرب ألا يعتدى على النساء الأسرى

والاعتداء على امرأة أسيرة وصمة عار لا تمحى فى جبين المعتدى وقبيلته .. وكثيراً ما حدثت سلسلة من الحروب الانتقامية بسبب مثل هذا الحادث .

والأسلحة المستعملة فى الحروب هى السيوف والحراب والخناجر والبلط أما العبيد فيسلحون با لعصى ولا يحمل الدروع إلا النبلاء والرؤساء والقواد .

وقد دخلت البنادق والمسدسات والرشاشات الحروب القبلية بعد دخول الفرنسيين .

وأول رحالة غربى اكتشف الطوارق هو الإنجليزى جوردون لانج سنة ١٨٠٠ الذى بدأ رحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عابراً غدامس ، وفى الطريق تعرف على الشيخ عثمان « شيخ منطقة الزاوية » الذى دله على مسالك الصحراء .. ولكنه قتل قبل أن يتم رحلته . قتله الأدلاء العرب الذين كانوا يرافقونه .

وفى سنة ١٨٤٩ استطاع الألمانى هنرى بارت أن يتم الرحلة التى لم يستطع زميله الإنجليزى إتمامها فوصل إلى تمبو كتو ثم عاد إلى طرابلس ماراً بكل قبائل الطوارق فى المنطقة .. وبذلك دخل التاريخ مع الرحالة العظام أمثال لفنجستون وستانلى وبرازا .

وأول مرجع واف عن الطوارق هو ما كتبه دوفيريه الفرنسى فى

رحلة استغرقت ٢٨ شهراً رافقه فيها الشيخ عثمان والرئيس التارجى أخنوخ .

وقد حدث بعد ذلك أن دعا دوفيريه الشيخ عثمان إلى باريس وقدمه إلى نابليون الثالث .

وأعقب هذا اتفاق تجارى بين الفرنسيين فى الجزائر وبين الطوارق ..

وبعد ذلك بدأت المقاومة فرفع الطوارق المسلمون شعار « لا كفار ولا مشركين فى بلادنا » .. وبدأ التقتيل يطارد كل بعثة فرنسية تحاول اختراق الصحراء .

وتوقفت البعثات عشرين عاماً .

وفى عام ١٨٩٩ عاد الرحالة فورد ومعه ثلاثمائة رجل مسلح ليقتحم قلعة الصحراء .. وهذه المرة استطاعت البنادق الحديثة والمسدسات المتعددة الطلقات أن تقتحم القلعة ورفع فورد العلم الفرنسى على واحة عين صالح وأعلن احتلالها .

وحاول الطوارق بقيادة « تيت » الهجوم على الفرقة الفرنسية ولكنهم عادوا وقد تركوا وراءهم سبعين قتيلاً .

وبعد ذلك بدأت القبائل التارجية تعلن خضوعها واحدة بعد أخرى .

اللغة البربرية والبربر

بطول الشمـال الأفريقى .. فى ليبيا فى جبل نفوسة وزوارة وفى جنوب تونس وفى وادى مزاب بالجزائر نجد اللغة البربرية والبربر .

وقد رأينا أن اللغة البربرية تدخل فى تكوين اللغة التارجية وتدخل فى تكوين اللغة « الغدامسية » وتدخل فى لهجات سكان الدواخل الليبية .

وقرأنا فى التاريخ أن البربر هم أصل الطوارق ، وفى إحدى النظريات أنهم أصل الفراعنة أيضًا .

وقد استطاعت الصحراء الليبية أن تذيب العرب والطوارق والبربر فى سبيكة واحدة متناسقة ذات وحدة وطنية .

وأمام الظلم والاستعمار يهب الكل .. كما يهب غومًا العربى

يهب أخيا التارجى وينتفض سليان البارونى البربرى .

وقد عرفت القاهرة سليان البارونى حينما كان يصدر جريدة الأسد الإسلامى .

وقد أطلق سليان شعر لحيته ورأسه وأقسم ألا يحلقه إلا حينما يخرج آخر جندى إيطالى من أرض الوطن .. وقاد الكفاح الليبى ضد الاستعمار الإيطالى وسافر إلى تركيا ثم الهند ثم توفى فى بمباى وما زال له فيها قبر يزار .

وفى اللغة البربرية يستعمل حرف ت للتأنيث كما فى العربية .

ديك (زيبط) .

دجاجة (تزييط) .

حصان (اجمار) .

فرس (تجمارت) .

وفى تصريف الأفعال يضاف حرف « و » ليدل على الماضى ويضاف حرف « أ » ليدل على الأمر وحرف « س » للمستقبل كما فى العربية .

يقتل (يناغ) .

قتل (ينغو) .

سيقتل (سينغ) .

اقتل (انغ) .

وهناك شواذ مثل فعل يأكل وفعل ينام .

يأكل (يتت) .

أكل (يتشو) .

سوف يأكل (سايش) .

كل (أتش)

وفى فعل ينام يستخدم التخفيف فيحذف حرف « ط » للدلالة على الماضى .

ينام (يططس)

نام (يطس)

سينام (سيطس) .

نم (أطس) .

وللجمع يضاف حرف « ن »

جمل (الغم) .

جمال (ايلغمن) .

حصان (أجمار) .

أحصنة (أجمارن)

ديك (زييط) .

ديوك (أيزيطن) .

ذئب (أوشن) .

ذئاب (أوشانن) .

ومن الأغانى الشعبية البربرية التى يغنونها فى الأعراس مثل أغنية « مبروك عليكى يا عروسة » .. هذه الأغنية وكلماتها بالعربية .

رأيتها نائمة وشعرها متناثر حولها .

والأسورة تلمع فى يدها .

كانت متكئة .

ونظراتى تحج إليها .

كما تحج نظرات المؤمن إلى مكة .

بل أكثر .. استغفر الله .

رأيتها تسير .

وعودها ينساب كالسفينة .

معبأة بكل ما يخطر ببالك

من عنبر وعطور وسلع جميلة

وكلماتها بالبربرية .

زر يغطط طـطس .

لغط يتنس يمحل وس .

اديلج دوفسنس يبحص .

زر يغطط تتكا .

ديس اشتحت خران مكا .

لا يثل ما يمليغ .

زر يغطط تبجور .

الجدنس آمالبابور .

ياسبا سلعت يتشور .

أبلـلا تملد بلـلا دبس .

والأعراس الشعبية لها تقاليد طريفة عند البربر .

أول يوم فى الفرح ويسمونه فرش الحصيرة « ايساين جرتيلت » يطلقون الزغاريد والبخور وتغنى فرقة من العبيد « وكل المغنيات والراقصات عبيد سود وليسوا من البربر وهم نسل الرقيق القديم الذى اعتق وظل يخدم سادته ويتوارث هذه الخدمة أباً عن جد » والبربرية الأصيلة وهى عادة بيضاء وأحياناً شقراء لا تغنى ولا ترقص وإن كانت بعضهن زجالات وشاعرات .

وفى اليوم الثانى من الفرح تقدم الصرة وبها الكسوة والحنة والسواك والبخور تحملها جارية فى موكب زغاريد من بيت العريس إلى بيت العروس .

وفى الليل تقام حفلة ساهرة فى بيت العريس .. رقص وغناء وزغاريد .. ثم يتقدم أحد المغنين العبيد ويعدد محاسن المعازيم على الطبلة فى مقابل النقطة « أبريج » وفى ثالث يوم وهو يوم مشهود يشرف السلطان « العريس » فى المساء مع حاشيته ويجلس وعند

قدميه يجلس عبيد .. وفى نفس الوقت تشرف السلطانة « العروس » لتجلس مع أترابها من البنات .

وتطول جلسة السلطان وهو يتلفت حوله فى ألاطة (وهذه الألاطة جزء من التقاليد) ثم يمد يده إلى العبد الجالس عند قدميه فيعطيه زجاجة عطر ويمنحه منحة مالية وبذلك تفتتح الحفلة ويبدأ الرقص والغناء .

وفى الليل تسير السلطانة فى زفة وتعمل لفة على قدميها فى البلدة على ضوء المشاعل وأنغام وزغاريد فرقة العبيد .. والأغنية التى يرددونها فى تلك المناسبة .

ياللا ايا نروح .

تدرتنر تام طموح .

ومعناها .. هيا يا سيدتى .. أسرعى الخطو فالبيت بعيد .

وفى ليلة الدخلة يسير موكب يتقدمه أقرباء العريس إلى بيت العروس ويأخذون السلطانة إلى بيت عريسها .. وفى أثناء الطريق يطوق العبيد الموكب ويحجبونه بملاءة كبيرة تخفيه عن أعين الفضوليين .

والبربرية لا تتزوج إلا بربريًا .

والحب العذرى عندهم موجود ولكنهم محافظون جدًا إلى درجة التزمت فالبنت تختفى وراء حجاب ولا تختلط بالرجال ولا يستطيع

أن يختلى حبيبان فى خلوة . والتعارف لا يزيد عن نظرات مختلسة .

والأم هى التى تستطلع وتختار لابنها ثم يتقدم الأب ليخطب ويكتب الكتاب بمهر رمزى ٢٥ قرشاً كما هو متبع فى الشرع ثم يشترك الزوجان فى الأثاث والجهاز .

وبالنسبة للموت تكتفى المرأة بوضع وشاح أسود حول رأسها لمدة أربعة أشهر وأحياناً وشاح أحمر « أفكاى » وتجتمع النساء فى مجموعات ليبكين « دموع الرحمة » ويشترك الجيران فى جلب الطعام لأهل الميت ليأكل المعزون .. وفى اليوم الثانى تذبح ذبيحة توزع على الأهالى وتتلى الختمة لمدة ثلاث ليال « ايمسبغران » .

والمجتمع البربرى مجتمع استقرار يعتمد على الزراعة « الحبوب والزيتون والتين والرمان » وهناك صناعات غزل وصناعات جلود وأحذية يحترفها بعض البربر . ولكن صناعة الحدادة تتوارثها أسرتان كلتاهما غير بربريتين .

وطبقة الصفوة الرائده هم الموظفون الإداريون وفقهاء الدين ويسمونهم « العزابة » وهم الذين يقومون بالإفتاء وتعليم القرآن والشريعة وكتابة عقود الزواج والطلاق .

وهناك قلة من كبار الملاك .

ومستوى المعيشة مرتفع نسبياً بين البربر والإقبال على التعليم كبير لأن كل واحد يحلم بأن يصبح « عزابة » .

والبوتاجاز والثلاجة والتليفزيون والترانزسيتور والكاديلاك والبويك دخلت جبل نفوسة .

أما العبيد والسود فيؤلفون طبقة داخل بعضهم تحترف الزراعة والرقص والغناء والخدمة فى البيوت .

ويغنى السود فى أعراسهم أغانى تكشف عن ماضيهم الطويل الأليم ..

باباى من كاوار .
وأمى خادم .
واللى جرى لى ماجرى لبن آدم .
باباى من كاوار
وأمى حرة
واللى جرى لى ما جرى للضرة .

ولكن بعض السود المحظوظين استطاع أن يتعلم فى الجامعة .

وبعضهم دخل الجيش والبوليس .

ولا يوجد مسيحيون بين البربر .

وكلهم محافظون إلى درجة التزمت .

وهم يتبعون المذهب الأباضى .

والمذهب الأباضى يختلف فى بعض شكليات قليلة عن المالكى والشافعى والحنفى مثلاً عندهم لا بد من البسملة مع كل سورة .

والصلاة تبدأ بدون رفع اليدين إلى جانبى الرأس .

والتشهد بدون حركة الإصبع .

والخلافة تجوز من خارج البيت الهاشمى لأن شرطها هو الكفاية الخلقية والدينية وليس الدم الهاشمى .

وفى نظرهم أن على بن أبي طالب أخطأ حينما قبل التحكيم فى واقعة الجمل ، ونذكر فى التاريخ أن الموقعة حدثت بين جيش عمرو بن العاص وجيش على .. واكتشف عمرو بذكائه أن فرصته فى النصر قليلة فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب التحكيم .

وفى نظر الأباضية أن على أخطأ بقبول التحكيم لأنه صاحب حق فى الخلافة وبصرف النظر عن هذه الفروق الشكلية فإن البربر شديدو الإيمان وشديدو التمسك بأخلاقيات الإسلام وهم ودعاء أمناء قلما يصل بينهم شجار أو خلاف إلى درجة البوليس لأنهم يحلون أكثر مشاكلهم على المستوى العائلى وعندهم كلمة « رجل جيالى » مرادفة « لرجل أمين » .

أبناء نوح

فى كتاب العبر لابن خلدون يروى لنا ابن خلدون عن شجرة عائلة نوح وأولاده قائلاً إن نوحاً أنجب ثلاثة أبناء هم « سام ، وحام ، ويافت » .

أما فرع « يافت » فهو الذى جاء منه سكان شمال أفريقيا الذين استوطنوا هذا المكان من العالم قبل البربر وهم أجناس ما قبل التاريخ الذين يطلق عليهم الكروماجنون ويقول عنهم ابن خلدون إنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والكبش والقرد والثور وكانوا يدفنون الميت فى وضع جنينى لاعتقادهم بأنه سوف يبعث كميلاد الجنين من بطن الأرض .

أما فرع نوح الثانى « حام » فهو قد أعطانا ثلاثة أبناء هم

مصاريم وفلسطين وكنعان ..

مصاريم أنجب الفراعنة ..

وفلسطين أنجب الفلسطينيين القدماء .

وكنعان أنجب البربر .

وكلمة بربر جاءت من الجد الأكبر بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن نوح .

وجاء البربر فى هجرة من الشام إلى شمال أفريقيا منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح أى قبل التاريخ .

وكان الرحل منهم يسكنون الخيام من الشعر والوبر وبعض الذين استقروا على الزراعة فى الأودية كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ويحفرون فى الجبل غرفات كاملة بمرافقها ومازالت بعض هذه البيوت المنحوتة باقية فى جبل نفوسة وفى جنوب تونس وجبال الأوراس .

وكان دين البربر القديم هو آمون ومظاهره الشمس والقمر والكبش ذو القرنين وكانوا يقدسون الحمامة والطاووس والقط والضفدعة والسلحفاة . وكانوا يعتقدون أن قتل هذه الحيوانات يصيبهم بالشلل والجنون والعاهات .

وما زالت عقيدة تحريم صيد الحمام باقية إلى الآن فى أنحاء كثيرة من المغرب .

وأعتقد البربر فى الجن والأرواح التى تسكن الينابيع الحارة ، وكانت الأم عندهم مقدسة وكانت تحكم على القبيلة وتسوس الرجال .

وكان الابن قديماً ينسب لأمه لا لأبيه .

واستخدموا لغة منطوقة ومكتوبة هى اللغة البربرية .. واللغة المكتوبة سموها « تيفيناغ » وهو نفس الاسم المستخدم فى اللغة التارجية .

وترجمة كلمة تيفيناغ .. الحروف المنزلة من عند الله .

وأكثر الكلمات البربرية تجدها فى اللغة التارجية بنصها .

وحينما دخلت اللغة العربية مع الإسلام شرع البربر فى بربرة الكلمات العربية بإضافة التاء إليها :

الدار	تدارت
الحانوت	تاحنوت
الغابة	الغابت
الجنة	الجنت

وهناك أمثلة شعبية بربرية تشبه فى المعنى أمثلتنا العربية :

أنفسى تشورداست – يلاقى العضم فى الكرشة .

ويدهكلن يطاود – من صبر ظفر .

أغرم وليتو ابنى ديواس – الدنيا لم تبن فى يوم .
طيطس أنا وساعت – أبو عين فارغة .. أبو عيون جريئة .
تاليوت سوزاف : ألابلا سيقنطارن – الشفاء بالدرهم والمرض بالقنطار .

وقد أقام البربر دولة بربرية كبرى كانت تشمل ليبيا والمغرب وموريتانيا وحفظ لنا التاريخ أسماء ملوك عظام أمثال صفاقس ومصنيثا ويوغورطة وبوبا .

وقد غزا الرومان الدولة البربرية وأسروا ملوكها وساقوهم مكبلين بالحديد فى شوارع روما وجندوا ألوف البربر فى جيوشهم بالسخرة .

ويروى لنا التاريخ المعارك بين يوليوس قيصر وبوبا .

وتمزقت الدولة البربرية ولكن ظلت المقاومة تندلع من برابرة الجبل والثورات تتوالى ضد حكم روما .

ويروى لنا التاريخ أن أحد الأباطرة الرومان سبتموس سافاروس كان من أصل بربرى وأنه أنصف البربر وسن القوانين بمساواتهم بالرومان فى عهده .

ومازال تمثال سبتموس سافاروس قائماً فى أحد ميادين طرابلس إلى الآن .

وقد تعانقت الديانات البربرية القديمة مع الديانات الرومانية فكلها كانت ديانات وثنية .

وحينما جاءت المسيحية كان البربر أسرع من الرومان اعتناقًا لها فقد وجدوا فيها خلاصًا وأملاً .

وفى عهد الأمبراطور صوكليسيان أحرق وقتل آلاف من شهداء البربر المسيحيين .

وحينما دخلت روما المسيحية .. أنشأ اثنان من القسس البرابرة مذهبًا مسيحيًا اسمه الدونتسية .. واعتنق الكثير من البربر اليهودية نكاية فى الرومان .

ويروى لنا التاريخ سقوط الحكم الرومانى على يد قبائل الوندال (قبائل جرمانية غازية مثل التتار) .

وبعد موجة غزو الوندال تأتى موجة الغزو البيزنطى . وفى سنة ٦٤٨ وفى حكم عثمان بن عفان يدخل القائد المسلم عبد الله بن سعد على رأس جيش من عشرين ألفًا ليحارب مائة وعشرين ألفًا من البربر بقيادة جرجير البربرى وينتصر عليه ويقتله ويدخل الإسلام لأول مرة إلى البربر .

ولا يبقى أثر لهذا الطوفان من الغزو الرومانى والوندالى والبيزنطى .. لا تجد أثراً من وثنية أو مسيحية أو لغة رومانية أو جرمانية أو بيزنطية برغم سنوات من حكم السيوف .. ويفتح البرابرة أذرعهم للغزاة الجدد لغة ودينًا ليصبح الإسلام هو الدين الوحيد والعربية هى لغة الشمال الأفريقى كله .

ونسمع الآن فى جبل نفوسة فى مولد النبى البربر ينشدون المدائح النبوية المؤثرة بلغتهم البربرية ..

باتا يمرند تلقيس .. أس مكة استوفغنت إيشركن .

عنجال الدين أنربيس .. بيوض الدباغ سيضغاعن .

ومعناها :

ما أشد ما لقى النبى من عذاب .

من مكة وطنه أخرجه المشركون .

ومن أجل دين ربه .

رجموه بالأحجار حتى نزف دماً .

كلمة الله فى الصحراء

الصحراء كانت دائمًا مخبأً عظيماً للحرية والحركات التحررية وأوكاراً للثوار والمفكرين احتضنوا فيها أفكارهم حضانة طويلة قبل أن تفرخ زوابع غيرت وجه الأمة العربية.

وكانت جميع هذه الحركات التحررية دينية .

السنوسية فى الشمال الأفريقى والمهدية فى السودان .

فى برقة وواحة الجغبوب والكفرة وغدامس كان ابن السنوسى يتنقل لينشر دعوته بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليمان والمجابرة .. وأكثر من هذا كان السنوسية يشترون العبيد والأرقاء صغارا من السودان ويربونهم فى جغبوب وغدامس حتى إذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم الدينية أعتقوهم وسرحوهم

إلى أطراف السودان لنشر الدعوة بين أبناء جنسهم .

وبواسطة السنوسية صارت نواحى بحيرة تشاد مركزًا إسلاميًّا هامًّا فى وسط أفريقيا .

ويقدر المؤرخ دوفرييه أتباع السنوسية فى عام ١٨٨٣ بحوالى ثلاثة ملايين .

ويقول هاملتون إن السنوسى أسس أكبر أخوة دينية فى أفريقيا امتدت فروعها من مراكش إلى الحجاز .

فما هى الدعوة السنوسية ؟

كان ابن السنوسى يرفع شعارًا واحدًا هو إعلاء كلمة الحق .

تنبه الغافل وتعلم الجاهل وترشد الضال .

وكانت وسائله هى التقرب إلى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح والكفاح واتباع الزهد وقراءة التسابيح والذكر حتّى يصل بالمريد إلى درجة النورانية والوجد .

ولكنه لم يكن صوفيًّا منعزلاً وإنما كان مبشرًا له رؤية اجتماعية . . وفى ذهنه نظام مثالى عاش يخطط من أجله . .

كان يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى على صورة جديدة .

ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام الزوايا .

وفى أواخر عصره كانت هناك ١٢١ زاوية منها سبع عشرة فى مصر وواحدة فى استامبول واثنتان فى الحجاز وست وستون فى

طرابلس وبرقة وعشرة فى تونس وخمسة فى المغرب واثنتا عشرة فى السودان الأفريقى .

كل زاوية مبنية على مكان مرتفع حصين لتكون كالقلعة .

وبكل زاوية مسجد ومدرسة ومكتبة وحدائق وأراضى موقوفة .

والزاوية ملكية عامة للنظام نفسه هى والأراضى الموقوفة عليها . . وفائض غلات الأراضى إذا كان هناك فائض يرسل للمركز ليرسلها بدوره إلى الزوايا التى يديرها .

وكل فرد من أفراد القبائل يتبرع بحراث يوم وحصاد يوم ودراس يوم فى أرض الزاوية وذلك لتسهيل العمران دون نفقة .

وكانت الزاوية بمثابة استراحة للقوافل ومركز تجارى ومركز اجتماعى ومحكمة ومصرف وبيت الضيافة وملجأ الفقراء ومدرسة للقرآن وحرم آمن ومدافن وساحة للتدريب اليومى على الرماية وإطلاق النار .

وتجرى المسابقات وتعطى الجوائز لأمهر الرماة .

وكان حفر الآبار وبناء الصهاريج واستصلاح الأرض البور واجب كل زاوية فى المكان الذى تقام فيه .

وكان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدى فيتركون الدروس فى ذلك اليوم ويشتغلون بالنجارة والحدادة وغزل الصوف وفلح الأرض لا تجد منهم إلا من يكد

ويكدح وعلى رأسهم الشيخ السنوسى نفسه .

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ القبائل وأعيان المنطقة .

ومن شيوخ الزوايا جميعهم يتألف مجلس أعلى يترّأسه السنوسى .

وهو نوع من التنظيم الهرمى فى أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين يليهم إلى أعلى شيوخ القبائل ثم شيوخ الزاويا ثم الشيخ السنوسى .

ويجتمع المجلس الأعلى للنظر فى سير الحركة مرة كل سنة .

واتخذ النظام من برقة مركزًا للدعوة .

ومن برقة اتسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبنى الحارث وبنى حرب كما انتشرت بواسطة الحجاج فى اليمن . . وبنيت الزوايا فى المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة .

كانت السنوسية دولة داخل دولة .

وكان السنوسى يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى وتوحيده بتكاثر هذه الخلايا حتّى تبتلع الأمة العربية فى داخل هذا الشكل التنظيمى الجديد من الجماعة الإسلامية .

ولكن الاستعمار الإيطالى الزاحف من الشمال والاستعمار

الفرنسى الزاحف من الجنوب لم يمهل هذه الحركة حتى تؤتى ثمرتها . . ومالبث أن أطبق عليها بكلابة الحديد والنار .

وفى لحظة وجدت السنوسية نفسها فى موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا فى أعماق الصحراء .

يقول دوفرييه إن السنوسية هى المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر وأنها السبب فى الثورات المختلفة التى قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله فى تلمسان وعصيان محمد بز تكول فى الظهرا .

وفى سنة ١٨٩٥ كان علم المقاومة للاستعمار الفرنسى فى الجنوب فى يد السنوسيه وحدهم .

وكان محمد البرانى يجمع الجيوش من الطوارق والبدو والبربر لمقاومة الزحف الفرنسى .

وكانت الأموال والأسلحة تتدفق من التلاميذ والمريدين .

وفى خطاب مرسل من أحد تلاميذ السنوسى إلى مدير غدامس التركى يكتب التلميذ : وقد وقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانين رجلا . وغنمنا من الخيل كثيراً والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية وكل شىء غنمناه فى وفرة والحمد لله على ذلك وبركة شيخنا معنا .

وكانت من تقاليد الطريقة السنوسية مناولة السبحة والسيف

للمريد حينما يتم دراسته ويكون ذلك بأن يلبسه الشيخ الجرة أو الخرقة وبعد أيام يناوله السبحة ويلبسه السيف ويأمره بالصلاة بهذا الزى .

وفيما أورده المؤرخ أحمد زاده :

أنه من الواجب على كل فرد من السنوسية ما دام قادرًا وغير عاجز أن يكون مستعدًا للطوارئ متهيئًا للحرب منتظرًا للأمر منفذًا له بكمال طاعته .

ومما يروى أن رشيد باشا التركى أرسل جواسيسه إلى إحدى الزوايا .

وسأل الجاسوس أحد الإخوان وهو محمد البكرى عما إذا كان بالزاوية أسلحة فأجاب البكرى نعم لدينا مخازن من الأسلحة ثم قاده إلى أحد مخازن الكتب وفتحها له .

وقد استمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين عشر سنوات .
وفى سنة ١٩٠٢ سقطت زاوية بير العلانى فى أيدى الجيش الفرنسى الذى هدمها وبنى مكانها قلعة حصينة .

وفى سنة ١٩١١ تحولت السنوسية إلى الشمال لمقاومة الاستعمار الإيطالى واستطاعت أن تقاوم الإيطاليين عشرين سنة .

ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربى استطاع أن يهزم بدو الصحراء .

وفى كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية تحسم المعركة .

حديث الرجل الصالح

هو رجل مغربى منقطع للعبادة فى جبل .

لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه . .

هو عبد الله فى أرض الله .

يلبس جرداً من الصوف ويجلس على الأرض بغير فراش ويتوسد الحجر وما رأيت معه إلا بعض كتب مخطوطة . . وما رأيته ضحاكًا . . وما رأيته رافعًا بصره فى طريق . .

يكسب حياته من غزل الصوف .

ولا يأكل إلا بضع تمرات فإذا ارتحل فأعشاب الطريق زاده . .

وهو مورد الوجه يفيض صحة وإشراقًا .

سألته كيف تجد الكفاية فى هذه الأعشاب .

قال لى . كف يدك عن الأذى وطهر لسانك عن الغيبة وافتح قلبك للحب يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العيدان غذاء كاملاً .

سألته أن يعظنى .

فنظر إلى فى حياء وغمغم .

قال الله للمسيح « يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس والا فاستح منى » .

وأنا لم أتعظ بعد لأعظك .

فقلت له . . إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى على الطريق فقال وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد .

اصرف كل اهتمامك إلى العلم فإن الله لا يعبد إلا بالعلم .

لا تشتغل بطلب الدنيا فمن يشتغل بطلب الدنيا يبتلى فيها بالذل .

إذا خفت الله خاف منك كل شىء .

احذر صحبة النساء اتقاء على إيمان قلبك .

الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس وفراغ العقل وهذا شأن من تراهم على المقاهى . . فلا شىء يؤتنس به إلا الحضرة الإلهية والخلوة مع الرحمن .

من لازم الناس أصبح محصورًا فى محيطاتهم وفى هيكل ذاته

من دعا لظالم بطول العمر أو البقاء فقد دعا إلى معصية

نقاء السريرة وصفاء القلوب وسلامة النيات ومحبة الخلق والخالق هى رأس العبادة والسعى وراء الشهرة فسادها .

أكثر من صحبة الصالحين فإن فيهم الشفعاء .

قلت له :

– ومن هم الصالحون ؟

قال .

– لباسهم ما ستر وطعامهم ما حضر . . أبرار أخفياء أتقياء إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا . . تحابوا فى روح الله على غير أموال ولا أنساب . . يتعارفون فى الله ويحبون فى الله ويكرهون فى الله يقول الله عنهم يوم القيامة . . أين المتحابون بجلالى . . اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى .

قلت له : هل لهم وجود فى هذه الأيام ؟

قال :

– خلت الديار وباد القوم وارتحل أرباب السهر وبقى أهل النوم واستبدل الزمان بآكلى الشهوات أهل الصوم . . لم يبق إلا أقزام مهازيل حثالة كحثالة الشعير أمثالنا لا يبالى الله بهم .

قلت له ما رأيك فى أهل هذا الزمان ؟

قال فى حسرة :

– اعترفوا بالله وتركوا أمره وقرءوا القرآن ولم يعملوا به وقالوا نحب الرسول ولم يتبعوا سنته وقالوا نحب الجنة وتركوا طريقها وقالوا نكره النار وتسابقوا إليها وقالوا إبليس لنا عدو وأطاعوه ودفنوا أمواتهم ولم يعتبروا بهم واشتغلوا بعيوب إخوانهم ونسوا عيوبهم وجمعوا المال ونسوا الحساب وبنوا القصور ونسوا القبور.

لقد كنا فى زماننا نحلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بهما.

وأنتم جاءتكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فماذا فعلتم ؟

ولم أجد كلمة أجيبه بها.

أما هو فراح يبكى ويغمغم بين دموعه.

والله لولا عباد ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبًا.

وحينما تركته كان قد بدأ ينشد :

وشمس على المعنى مطالع أفقها.

فمغربها فينا ومشرقها منا.

وحينما كانت نغمات إنشاده تذوب فى الهواء كانت ذاكرتى تعود بى إلى لقائى بالمتصوف الهندى براهما وأجيسوارا الذى رويت حديثه فى كتابى الخروج من التابوت . . ولا أدرى لماذا أحسست أنى أمام نفس الرجل . .

كان كلاهما يقول كلامًا واحدًا ويتكلم نفس اللغة وكأنما

يجلسان على مائدة واحدة يقرآن من نفس الكتاب .

وتذكرت حديثى مع المتصوف المغربى عبد العزيز بن عبد الله وكيف كان يقول لى إن التصوف الهندى هو الذى أخذ منا ولم نأخذ منه . وإن تجار بابل وفارس وعلماءها كانوا ينقلون دياناتنا الشرقية إلى الهند من أيام إبراهيم الخليل بدليل دخول الكلمات العربية فى الكلمات السنسكريتية .

سوترا (الصورة) .

جو . . (هو) .

منتا . . (من أنت) .

بوداتا . . (ذات بودا) .

أحسين . . (إحسان) .

إسرافا (إسراف) .

ماهايانا .. (معاينة)

كارما (كرمة)

نيرافانا . . (نور الفنا)

لقد كنا نعطى دائماً .

ولقد أخذ منا الكل

واحتوت ديانتنا على الحق كله .

والتصوف الإسلامى احتوى بين دفتيه على كل الطرائق بما فيها

اليوجا الهندية وغيرها .

وتفوق عليها جميعًا بعمقه وأصالته .

وكنت أسير مستغرقًا فى التفكير .

وكان إنشاد الفقير المغربى مازال يرن فى أذنى .

وشمس على المعنى طالع أفقها .

فمغربها فينا ومشرقها منا .

نعم . . إن الشمس تغرب فينا الآن . .

فمتى يكون مشرقها منا ؟ . .

متى تعود الشمس لتشرق منا ؟

متى ينتهى الغروب والليل وينبثق منا الفجر من جديد .

متى . . ؟

وكنت أرتجف كلما تذكرت أنه بعد الغروب يأتى دائمًا الليل الأسود .

وأخشى أن يكون نصيب جيلنا من الزمان هو الليل الأسود .

وأخشى أن يطول الانتظار .

وأشعر أنى أبكى كما يبكى المغربى العجوز المجهول الاسم والمكان . . عبد الله فى أرض الله .

فهرس

صفحة

الجنة درجة حرارتها ٤٨ .... ٥
الظلام حالك فى عز النهار ١٩
الرجل ملثم والمرأة سافرة ٣٣
القبلات بحك الأنف بالأنف ٤٣
مجتمع غريب فى الخلاء ٥٣
علاج الإمساك بشجرة الأجرجر ٦٣
اللغة البربرية والبربر ٧٣
أبناء نوح ٨٣
كلمة الله فى الصحراء ٨٩
حديث الرجل الصالح ٩٧

رقم الإيداع	١٩٩٧/٧٤٣١	
الترقيم الدولى	977-02-5433-9	ISBN

١/٩٧/٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



دار المعارف

٠١٩٤٦٣

